جبـــــل الإنجليـــــز

(روايـــــة)

تأليـف

د. عصـــــام محمـــود

السَّعيد

للنـــشر والتـــوزيـــع

اسم الكتاب/ جبل الإنجليز
الكاتب / د. عصام محمود
الطبعة الأولى 2019
تصميم الغلاف : محمد محسن
المراجعة اللغوية : د. عصام محمود
رقم الإيداع : 2019/19240
الترقيم الدولي: 2 - 50 - 6727 - 977 - 978
التصنيف: رواية
الناشر : السعيد للنشر والتوزيع
المدير : لميـــاء السعيـــــد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

01550096215 - 0222017260

elsaidpublisher@gmail.com

السعيد
للنشر والتوزيع

إهـــداء

إلى روح أمي في ذكراها الأولى..

ولا مزيد..

فبعدك ماتت الكلمات

السِّبَاحَة ضِدُّ التَّيَّارِ تَحْتَاجُ إلى سَواعِدَ قَويَّة..

ولَنْ يُقَاوِمَ التَّيَّارَ قَارِبٌ بِغَيْرِ مَجَادِيفٍ تُحَرِّكُهُ ودَفَّةٍ تُوجِّهُ

حكمة فرعونية

(1)

صعدنـا الجبـل ببـطءٍ وخـوفٍ،. حتـى وصلنا إلـى فتحـة الكهف المزينـة بالرسـوم واللوحـات الفرعونيـة المزركشـة.. عرفناهـا رغـم مرور عـام كامل علـى تركنا إياهـا.. أدرنـا العجلـة الحربيـة.. وفتحنا الباب السـري.. دلفنا إلى الغرفة الوهمية وأغلقنا الباب خلفنا.. فتحنا الباب المؤدي إلى الممر السـري وعبرنا ثم أغلقناه خلفنا.. نحن الآن في قلب دائرة الموت التي نـادرًا ما يخرج منها مَنْ دَخَلَها حيًا.. سـرنا في الممر ... حتى وصلنا بجوار الحجرة المنشودة حجرة الذهب..

توقفت عندما لمحت شـيئًا أعرفـه تمامًا.... كنت أخشـى من تلك اللحظة التي تجمعني به.. فأمامي يرقد هيـكل عظمي بكامله.. أعرف صاحبه جيدًا.. ولي معه ذكريـات طويلة.. اقتربتُ منه ببطء وأنفاسـي تتلاحـق .. شـعرتُ بزوجتـي تمسـك فـيَّ مـن الخلـف وتنظـرُ حيث أنظرُ.. ثم همستْ في أذني: هو؟

هززتُ راسـي قائلا بصوت خفيض: نعم .. ثم جثيـتُ على ركبتي وتفرسـتُ فيه.. وجدتُه كما تركناه منذ عام كامـل.. فقط اختفى الوجه

النضر والملامح الجادة والجسد النحيل.. وبقي الهيكل العظمي.. كنت أعرف صاحبه فهو صديق العمر وسبب كل ما حدث لنا في هذا العام من خير وشر.. كان الهيكل بكامل الملابس التي كانت عليه كما تركناه.. مددت يدي ببطء شديد داخل الجيوب وأخرجت كل ما كان فيها.. حافظة الأوراق وميدالية المفاتيح وكل شيء.. فتحتُ الحافظة وجدْتُ البطاقة الشخصية وبعض الأوراق والنقود..

تركتُ الهيكل العظمي مكانه.. وعدتُ إلى الساحة حيثُ العجلات الحربية والأسلحة ووقفتُ في المنتصف بجوار قبر آخر أعرفه جيدًا.. فقد شاركتُ في حفره منذُ عام.. وبجواره تمامًا حفرتُ حفرةً عميقة بالأدوات الموجودة في الساحة.. توقفتُ قليلا ألتقطُ أنفاسي اللاهثة.. ثم عُدُّتُ سريعًا إلى الممر وحملت الهيكل العظمي بين ذراعيَّ وسرتُ به حتى وضعتُه على حافة الحفرة.. تركتُه لحظات ثم صليتُ عليه صلاة الجنازة.. وسحبتُه برفق حتى أسكنتُه القبر.. وألقيتُ بجواره كل أشيائه.. حافظة الأوراق بكل ما فيها والمفاتيح وحتى النقود.. ثم أهلْتُ عليه التراب.. لقد جمعتُهما كما كانا يتمنيان..

عملية تأخرتْ عامًا كاملا.. لم يكن الأمر في ذهني ولم أعد له مستقبلا.. لكن عندما شاهدت الهيكل العظمي.. عاودني الحنين والشوق وتذكرتُ ما كان بيني وبينه وجدتُ لزامًا على أن أواريه التراب.. وأحقق لهما ما منع القدر تحقيقه في الدنيا بجمعهما..

دخلتُ الغرفة الذهبية بحذر شديد وإن شئنا الدقة فهي غرفة الموت.. فأنا أَعْرَفُ الناس بحقيقتها.. وجدتُ على أرضيتها ثلاثة هياكل عظمية بكامل ملابسها.. أعرف أحدهما بل كنت السبب في مقتلهم جميعًا هنا.. سحبت صندوقًا من الصناديق الذهبية وبدأت التراجع حاملا إياه بحذر شديد .. فأقل خطأ معناه الموت المحقق.. وقد شاهدت ذلك بعينيَّ أكثر من مرة .. سرت به على أطراف أصابعي موليًا ظهري للباب حتى خرجت من هذه الغرفة الملعونة.. تنفست الصعداء لنجاتي من ذلك الموت المحقق..

وجدت زوجتي واقفة تبكي وهي تقرأ الفاتحة على روح أغلى إنسان فقدته هنا..

***

(2)

قبل عام من الأحداث السابقة..

تداخلت الصور في عيني أماني فنظرتْ في ساعة الكمبيوتر أمامها لتجد أن وقت العمل قد انتهى منذ مدة.. تراجعت بظهرها للخلف حتى ابتعدت عن الشاشة.. ثم وقفت ببطء من فوق الكرسي القابع أمام جهاز الكمبيوتر الذي تعمل عليه طوال اليوم.. انتظرت لحظات حتى يستعيد جسدها حيويته بعد جلسة عمل طويلة.. ثم اتجهت إلى الجهاز المقابل حيث يجلس زميلها وخطيبها سعيد.. وضعت يدها على كتفه فانتبه فزعًا ثم ابتسم.. هب واقفًا لكنه سرعان ما عاود الجلوس إذ شعر بالدوار لطول جلسته دون حركة..

أماني: يبدو أن الكتاب الذي بين يديك مثير حتى يصل بك إلى هذه الدرجة من التركيز!

ابتسم سعيد: فعلا ما شاء الله أسلوب صاحبه مثير جدًا وأخطاؤه قليلة..

أماني: إلى هذا الحد؟

نعم: انا سوف أخذ الملف أكمل قراءته في البيت.. أجاب وهو ينقل الملف على الفلاشا الخاصة به.. وقد احتجت إلى الحديث مع الدكتور صاحب الكتاب لكنه لم يرد على اتصالي.. هيا لن أعطلك.. سأخبر الأستاذ وليد ثم نمشي مسرعين..

كنت منهمكًا في عملي فلم أنتبه إلا وسعيد ينادين فرفعتُ رأسي.. وجدته واقفا أمام مكتبه..

سعيد: سوف نمشي الآن حضرتك محتاجنا في شيء يا أستاذ وليد؟

نظرتُ إلى ساعة هاتفي ثم قلت:لا.. تستطيعون الانصراف.. لكن لا تتأخروا غدًا.. عندنا عمل كثير..

- حاضر.. هوحضرتك لن تنصرف معنا؟

- لا أمامي بعض العمل انتهي من الملف الذي في يدي ثم انصرف حوالي نصف ساعة..

عاودت النظر في رزمة الأوراق المصورة التي أمامي ممسكًا بالقلم لتدوين بعض الملاحظات والمعلومات.. بينما خرج سعيد وأماني من المكتب.. لم أدر كم مر من الوقت..وانا منهمك في عملي بمراجعة الأوراق وكتابة التعليقات.. لكنني شعرتُ بألم في ظهري فرفعتُ رأسي ونظرتُ في الساعة فاكتشفتُ أنني مكثت أعملُ وحدي قرابة الثلاث ساعات دون أن أشعر.. فأطفأت حاسوبي ثم أغلقتُ المكتب وانصرفتُ.

***

(3)

ومع كل هـذه الاكتشـافات الكبيرة في علـم المصريـات فمازالت أسـرار الفراعنـة عاصيـة علـى الفهـم.. ولـم تبـح هـذه الاكتشـافات بمعظم هذه الأسـرار.. ولا أظننا يمكن يومًا أن نجـزم بحقيقة واضحة حول معظم هذه الأسرار ... هل من أسئلة؟

هز الطلاب رءوسـهم نفيًا.. فابتسـم الدكتور عادل قائلا: نلتقي في المحاضرة القادمة إن شاء الله..

خرج الدكتـور عادل وكعادته فتـح هاتفه الذي اعتـاد إغلاقه أوكتم صوتـه طـوال المحاضـرة التـي اسـتمرت سـاعتين.. وجـد ثمـان مكالمـات لم يـرد عليهـا بينها رقمًـا تكرر خمـس مرات.. أخـذ يفكر خاصـة أن برنامـج الكشـف عـن الأرقـام (تروكوللـر) أظهـر (سـعيد ترجمة) فوجئ عادل بالرقم يعاود الاتصال به فاستقبل المكاملة:

السلام عليكم

.....

من؟

....

آه.. آه

.....

خيرًا؟

....

حسنًا لا مشكلة.. متى؟

.....

اليوم؟!

.....

طيب بعد ساعة.. سأنتظرك في مكتبي.. تعرفه؟

....

تمام.. وعليكم السلام

.....

جلس الدكتور عادل في مكتبه فاتحا حاسبه الشخصي حتى سمع صوت رنين جرس الباب.فقام واستقبل سعيد الذي دخل المكتب متبسمًا.. رحب به عادل وجلس أمامه..

- الدكتور عادل: عذرًا فقد انصرف العامـل.. ولا يوجد من يقوم بعمل أي مشـروب.. لكني معتاد على هذا الأمر.. سـأصنع لي ولك ماذا تفضل ان تشرب؟

- لا شكرا

- لابد أن تشرب شيئًا.. خاصة وأن العمل سيطول بيننا

- حسنًا شاي ثقيل سكر زيادة لو سمحت

- اتفضل يا سعيد أنا جاهز لأسئلتك

ضغـط الدكتـور عادلـزر تشـغيل سـخان المـاء.. وأمسـك كوبين ورقيين ووضع فيهما الشاي والسكر

- عادل: اتفضل أنا سامعك..

- كما قلـت لحضرتـك في الهاتـف. لقددرسـت معك في قسـم الآثار المصرية منذ خمس سـنوات.. وكنا أول دفعة تدرس لها بعد حصولكم على الدكتوراه..

ابتسـم عادل وهز رأسـه فواصل سـعيد كلامه: وكنا نرى حماسك الشـديد للحضـارة الفرعونيـة خاصـة الدولـة الوسـطى.. وقـد لفـت بحثكم المثير هذا انتباهي.. وما فيه من غرائب واكتشافات قيمة..

هز عادل رأسـه تشـجيعًا لتلميذه على الاسـتمرار.. فواصل سـعيد كلامه: وأود أولا سؤالكم عن مدى حقيقة ما جاء في هذا البحث؟

هذه أسرار علمية لم تخرج للنور بعد.. وليست للنشر

يا أستاذي لست صحفيًا.. فقط أنا تلميذكم وكما تعرف فقد علمتمونا الشغف العلمي.. وعلم المصريات من المثيرات وفواتح الشهية للعلم.. فأردت أن أعرف مدى حقيقة ما جاء فيه.

تردد عادل لحظات بدت لسعيد طويلة ثم همس: نعم حقيقة

فتح سعيد فمه ليعلق لكنهما سمعا صوتا عميقا حادًا: لقد حذرناك يا دكتور عادل.. ووعدتنا وها أنت تنكث بوعدك معنا..

نظر الاثنان تجاه الصوت وأصيبا بالرعب

فصرخ عادل: لم أقل شيئًا..

قضي الأمر!

***

(4)

تبادلتُ النظرات مع أماني ولم نتكلم.. فقد نفد الكلام.. وليس بيننا حوارسوى ذلك اللغز المحير.. نعم أصبح اختفاء سعيد زميلنا في المكتب لغزًا محيرًا.. فقد مرت ثلاثة أيام لم يظهر فيها.. هاتفه مغلق على غير العادة.. وليس موجودًا في شقته.. هل تعرض لمكروه أو وقعت له حادثة؟ هل عاد إلى قريته فجأة.دون أن يخبرنا. هذه ليست عادته.. فهو شبه وحيد في هذا العالم إلا من أمه التي تعيش في إحدى قرى محافظة سوهاج.. ولا يزورها إلا كل عدة شهور في أوقات معلومة محددة...هو شخص بلا أسرار ولا خفايا.. كان آخر عهدناأنا وأماني به عندما خرج معأماني.. ثم أخبرتني أمانيأنهما افترقاومشى كل منهما في طريقه.... ثم اختفى وأغلق هاتفه..

تُرى ماذا حدث له؟

أسئلة كثيرة بلا إجابات!

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام

تطلعت إلى الداخل علينا فوجدته شابًا في مقتبل العمر.. تجاوز مرحلة الطفولة إلى الشباب.. ابتسم بقلق قائلا: لو سمحت أنا عندي سؤال قد يبدو غريبًا.. أمعنت فيه النظر لكن أماني هتفت قائلة:

- تفضل

- هل حضر عندكم منذ أسبوع رجل ليكتب بحثًا؟

- الذين يحضرون لكتاب الأبحاث كثيرون.

- هو دكتور في الآثار..

اندفعت أماني قائلة: دكتور عادل؟

صرخ الشاب نعم!

لا تقل إنه اختفى منذ أربعة أيام!

هذا ما حدث بالفعل.. لقد اتصل أنه سيتأخر على الغداء في مكتبه ولكنه لم يعد.. وعندما تأخر اتصلنا به فوجدنا هاتفه مغلقًا.. فذهبنا إلى المكتب وجدناه خاليًا تمامًا.. واختفى حاسبه وهاتفه.. وليس هناك أثر لأي عنف أو سرقة.. فقط لم يعد له أثر..

قلت له: هل أبلغتم الشرطة؟

نعم حضرت وعاينت ولم تجد أي شيء غريب.

واختفي أيضا سعيد زميلنا في المكتب. فهل هناك رابط بينهما..

نظرات أمانـي إلى ثم إلى الجهـاز الذي كان يعمل عليه سـعيد قبل اختفائـه والذي لم يجلـس عليه أحد منـذ غيابه.. في لحظـات وضعنا نحـن الاثنين أصبعنا على زر تشـغيل الحاسـب.. فتلاقـت أيدينا فوقه وضغطنـاه معًا..وجلسـتُعلى المقعـد المواجـه للشاشـة بينمـا وقـف الشاب وأمانيخلفي ينظران إلي..

فتـح الحاسـب وطبقًـا لنظـام العمـل وجـدت نسـخة مـن الملف مكتوب عليها اسـم الدكتـور عادل فضغطـت عليـه.. كان الملف كله عبارة عن بضع كلمات في صفحة واحدة..

لم أعـرف أن هـذا الجبـل يحمل كل هـذا القـدر مـن الغموض.. حولـه هالة مـن الخـوف والإشـاعات لكنهـا أبـدا لا يمكـن أن تصل إلـى مـا وصلـت إليـه فـي رحلـة بحثـي.. طبيعـة بكـر لـم تلوثهـا يد الإنسـان.. تشـعر أنك وحـدك وسـط عالم خاص بـك.. أعـرف أنني أسـتخدم لغـة غيـر علميـة.. غيـر محايـدة.. لكـن سـحر هـذا الجبل يجعلـك تنطـق بالشـعر دون صوت يخـرج أو لسـان يتحرك.. سـحر جعلنـي أخلف وعـدًا قطعته بـألا أتكلـم أبدًا لكنـه يأبـى إلا أن يخرج مني الحقيقة كاملة..

هناك في القلعـة الإنجليزيـة وخلف مدفع تشرشـل تنتهـي الرحلة نحو حقيقة مذهلة.وقصة لا يصدقها عقل..

البداية في القارة.. فمنـذ دخلتُ الغرفة الثالثة فـي ذلك القصر وأنا أعرف أن وراءها لغزًا رهيبًا

.....

هذا هو كل ما كتبه سعيد في الملف المفتوح..

ما هذا.. هل فهم أحدٌ شيئًا؟

سؤال بلا إجابة!

***

(5)

جلستُ بجوار الشاب في سيارته بينما استرخت أماني في المقعد الخلفي.. وتحركت السيارة يقودها الشاب.. وفجأة هبت أماني:

ما اسمك؟

قفز الشاب من شدة الصوت.. بينما انفجرت في الضحك.. فواصلت أماني: لقد عرفتَ اسمي واسم وليد وكذلك صديقنا سعيد ومع ذلك لم تقل لنا اسمك..

ابتسم الشاب بخجل: كنت أفكر أن أخبركما باسمي لكنني ترددتُ.. فنظرنا إليه بتساؤل فواصل كلامه: دومًا يسخر منه كل من أذكره له أو يعلمه.. أحمس

نعم!

أحمس هل هناك شيء؟

هززْتُ رأسي نفيًا

فاندفعت أماني قائلة: كيف حال الهكسوس؟

نظرت إلى أحمس ثم انفجرنا جميعًا في الضحك..

نظر إلينا أحمس بخجل قائلا: كما تعرفان: فإن والدي مولع بالتاريخ الفرعوني.. ونال الدكتوراه في تاريخ مصر في عصر الهكسوس.. وولدتُ في نفس العام الذي سجل فيه درجة الماجستير فأسماني (أحمس)

وهل لك إخوة؟

نعم أخت واحدة. أكبر مني بعامين..

اسمها هاميس؟

هل تعرفينها؟!

ذهلت أماني وقالت: كنت أداعبك فهل اسمها هاميس حقًا؟

نعم نعم.. وتعاني مثلي من اسمها..

توقفت السيارة أمام بناية يبدو عليها الطابع الحكومي.. نزل الشاب أمامنا واتجها إلى مدخل جانبي صغير يؤدي إلى شقة في الدور الأرضي فتبعناه وأخرج أحمس مفتاحًا وفتح الباب.. الشقة صغيرة نوعًا ما لا تزيد على 80 مترًا.. مكونة من غرفتين.. غرفة بها أرفف عليها عشرات وربما مئات الكتب والغرفة الثانية للنوم.. والردهة فيها عدة كراسي وسطها تقبع منضدة صغيرة... الشقة تبدو مرتبة ولا آثر لأي شيء..

هنـا مكتـب والـدي حيـث كنـا نعيـش قبـل الانتقـال إلـى شـقتنا الجديـدة قبـل عشـر سـنوات وقـد جعلهـا والـدي مكتبـا ومكتبـة خاصين به

هل رتبتم الشقة؟

لا والـدي بطبعـه منظم..وكل شـيء في موضعـه.. وتأتـي والدتي وأختي كل فترة لتنظيفها.. لأن والدي يقيم بهـا فترات طويلة.. خاصة عندما يشـرع في كتابة بحث جديـد.. ومنذ اختفائه لـم ندخلها إلا بعد تأخره ثم مع الشرطة وأغلقناها..

وليد تعال.. انظر

كان صـوت أمانـي قادمـا مـن المطبـخ حيـث وجدنـا كوبيـن من البلاستك مجهزين بالشاي والسكر وسخان الماء ممتلئ..

يبدو أن شـخصًا كان مع والدك قبل الاختفاء لكنهما لم يتمكنا من شرب الشاي لسبب ما.. ألم ترَالشرطة ذلك؟

لا لقـد حضر معـي ضابـط صغير..وعندما وجد كل شـيء سـليمًا ولا أثر للعنف لم يهتم للأمر وانصرف مسرعًا..

قلتُ: ألم يلاحظ شيئًا؟

لا ... فقط وجد أسفل الكرسـي علبة سـجائر محلية الصنع.. وقد تعجبت وقتهـا لأن والدي لا يدخن هذا النوع.. لكـن الضابط قال: إنه أمر بسيط لعل صديقًا لوالدك نسيها في المكتب..

هل يستقبل والدك أصدقاء هنا؟

نعم هذا المكتب جعله أبي لضيوفه وطلابه من الدارسين والباحثين.. وكثيرًا ما يبيت فيها إن جاءه باحث من خارج مصر..

هل قلت للضابط ذلك؟

نعم..

إذن فالضابط على حق..

ربما وحقًا فكثيرًا ما ينسى الضيوف بعض أشيائهم الخاصة هنا ويتصل بي والدي لفتح المكتب والبحث عنها عندما يتذكرها الضيف..

هل..؟

قاطعنيأحمس قائلا: أنت تسأل وتبحث أكثر مما فعله الضابط..

ابتسمتُقائلا: ليس إلى هذه الدرجة كل ما في الأمر أن الموضوع متعلق بنا بصورة مباشرة.. فاختفاء والدك وصديقنا أمر محير.. هل يمكن أن أرى علبة السجائر؟

هزَّأحمس رأسه واتجه نحو رف في المكتبة وتناول منه علبه سجائر محلية الصنع..

هززْتُ رأسي نفيًا: إنها ليست من النوع الذي يدخنه سعيد أيضًا..

ابتسمت أماني وقالت: هذا ما فكرت فيه عندما رأيتها..

هززت رأسي بيأس: لا شيء يمكن أن يلفت الانتباه في المكتب.. إذن فالعودة إلى المربع صفر..

أماني: لا شيء سوى كلمات غامضة واختفاء بلا مبرر ثم لا شيء. لكن انظر أليس هذا كابل الشاحن الخاص بسعيد؟

اتجه الثلاثة نحو الكابل الموجود في الحائط فجأة لمحت شاحنًا للهاتف موضوعًا في كابس الكهرباء أعرفه جيدًا فقلت: لقد كان سعيد هنا!

***

(6)

اقتربت الساعة من الخامسة مساء ومازلتأعمل مع أماني في إنجازالعمل.. لقد صار العمل كثيرًا وشاقًا مرهقًا بعد غياب سعيد.. بل لقد أصبح جو المكتب كئيبًا بعد غيابه غير المفهوم..

فتح باب المكتب ودخل أحمس وخلفه فتاة أصغر منه سنًا..

مساء الخير؟

أهلا مساء النور..

هذه اختي هاميس.. تفضلوا

اليوم كنا عند الشرطة حيث أبلغت الجامعة باختفاء والدي وحضر عدد كبيرمنهم للمعاينة وكانت معهم أمي وأختي..

ممتاز.. وهل وصلتم إلى شيء جديد؟

لا شيء.. فقط لاحظنا اختفاء حقيبة والدي وعدد من الأوراق والخرائط.. فقد سألت الشرطة في الجامعة آخر من رأهم والدي

وأخبره العامـل في الكلية أنـه أوصله للسـيارة حاملا خرائـط وأوراق كثيرة..

ولكننا لم نجد أية أوراق أو خرائط..

هل والدك معتاد للسفر خارج القاهرة؟!

خـارج القاهـرة! (قالتهـا هاميس بسـخرية) بـل قل خـارج مصر.. كان في رحلة إلـى الفيوم ثم عاد إلـى الواحات البحرية ثـم إلى ألمانيا لحضـور مؤتمـر علمي.. هـذا أمر عـادي فـي عمله فهـو تقريبًـا يزور مصر كلها مرات كثيـرة في العام.. خاصـة مناطق الصعيـد والواحات البحرية..

ألم يتكلم معكمعن عمله أو شيء يخصه؟

والـدي بطبعـه هـادئ. ودائـم الحديـث عـن الحضـارة المصريـة العظيمـة والآثـار.. يؤمن أن مصـر قويـة فتية ولـم تبح بكل أسـرارها بعد..

لكنه فـي غير ذلـك لا يحب الـكلام قبـل أن ينهـي البحـث.. فهو دائما يـردد قول رسـول الله صلـى اللـه عليه وسـلم: «لا تبـع ما ليس عندك»

آه نعـم هـذا يشـبه المثـل الـذي يقـول: لا تبـع فـراء الثعلـب قبل صيده.. لكنه كان سـعيدًا بحصولـه على وثائق ألمانية سـتجعله يحقق اكتشافًا مذهلا..

قالـت هاميس: لقـد عـاد والدي مـن رحلـة علميـة فـي الواحات البحرية منذ عشرة أيام..

أمانـي: لمـاذا كل الطـرق مغلقـة أمامنـا؟ ألا يوجـد بصيـص مـن الضوء ينير لنا السبيل؟

لحظات صمـت طالت على الجميع.. وقفتُ متحـركًا في المكتب بهـدوء ثم قلـت: نحـن تائهـون حقًـا إذن فعلينـا الرجـوع إلـى منطقة لنحلل منهـا الموقـف.. اختفـاء الدكتور عـادل ومعه سـعيد في وقت واحـد دون أن يتركوا أثـرًا.. واختفاء الهواتف والحاسـوب والخرائط ألا يدل على شيء؟

أمانـي: لعـل فـي الحاسـوب والخرائـط ما يخشـاه مـن كان سـببًا في اختفائهما..

بل بالفعل في الحاسب والخرائط ما يخيف شخصًا أو جهة ما..

أحمس:وماذا في حاسبهأو خرائطه يمكنه أن يخيف أحدًا؟

هذا ما يجب علينا البحث عنه..

أحمس: هـو لا يعمل فـي كلية عملية كشـركات الأدويـة أو أبحاثًا متعلقة بالحروب أو التكنولوجيا العسكرية..

ومـن قـال لـك إن الفكـر النظـري يقـل خطـورة عـن التطبيقـات العمليـة؟! وأعتقـد أننـا أمام واقـع فعلـي فبحث والـدك هذا لـه صلة مباشـرة بما حدث له ولسـعيد.. فهذا هو الرابط الوحيـد بينهما.. لابد أن السر يكمن فيما كتبه والدك في بحثه..

أماني:حقًا يا أحمس في أي شيء كان يبحث والدك؟

في تاريخ الآثار كما قلت لكما..

نعم.. لكن حدثنا عنه أكثر..

هاميس: والدنا من عشاق الدولة الحديثة

حديثة مع الآثار؟

ضحك أحمس وهاميس التي ابتسمت وهي تقول: الدولة الحديثة يقصد بها الدولة الفرعونية التي بدأت بأحمس (1550 - 1525) ق.م طارد الهكسوس وفيها ملوك كبار مثل أمنحتب الرابع (1353 - 1335) ق.م المشهور بإخناتون وحور محب وغيرهم..

تبادلت نظرات التعجب مع أماني بتعجب وقالتأماني: وتعرفين بداية الحكم ونهايته للملوك!

هاميس: نحن نعيش معهم في البيت فلا حديث لأبي إلا عن تلك الدولة.. ووالدي يعرف عن حياتهم أكثر مما يعرف عن حياتنا..

قلتُ: ألا توجد وسيلة تمنحنا بارقة نور؟

هتفت أماني: عندي فكرة ربما تقودنا إلى شيء!

نظر إليها الجميع فواصلت قائلة: سأذهب أنا ووليد لمقابلة والدتكما..

قال أحمس: وماذا ستقولأمي أو تعرف غير ما نعرف؟

قد تساعدنا في حل تلك الطلاسم وليس هذا فقط..

بل تحاولـون الحديث مـع زملائه وطلابـه وآخر من شـاهده لعلنا نخرج بمعلومة تفيدنا في حل هذا اللغز والعثور عليهما..

***

(7)

جلست أنا وأماني في غرفة الاستقبال بينما استأذن أحمس وهاميس قليلا.. ثم دخلت هاميس وبصحبتها امرأة في أواخر الأربعينيات ذات ملامح جميلة هادئة.. صورة لما ستكون عليه هاميس عندما تكون في مثل سنها.. رحبت الأمبنا وجلستْ في مواجهتنا..

أهلا وسهلا بكما

أهلا وسهلا بحضرتك..

ابتسمت الأم وهي تقول: لقد أخبرني الأولاد بأمر صديقكم سعيد الذي اختفى مع الدكتور عادل..

هززنا رأسينا علامة الإيجاب.. فواصلت الأم حديثها: ألم تبلغوا الشرطة؟

قلت لها: نحن نخشى من المشاكل فهو ليس قريبنا ولا نملك أي سبب لاختفائه..

أماني: بالفعل لقد فكرنا في إبلاغ الشـرطة لكننـا لا نملك معلومة نقلها للشرطة فقط اختفى وخشينا من المشاكل..

قلت: نحن نريد أن تحدثينا عن الدكتور عادل

- لم؟
- لقـد قررنـا أن نبحـث عـن صديقنـا إذ لابد أنـه في حاجـة إلى مسـاعدتنا..وقد نتمكـن مـن مسـاعدته إن تحركنـا بسـرعة وبصورة صحيحة..
- مشاعر طيبة لكن ما علاقة اختفاء الدكتور باختفاء صديقكما..
- نحن نعتقد أن هناك رابطًابينهما..
- الحقيقة ليس هناك ما يمكـن قوله فالدكتور اعتاد السـفر داخل مصر وخارجها كثيـرًا.. ونادرًا ما يمكث شـهرًا فـي بيته.. فقط هذه المرة اختفى دون أن يخبرنا..
- أين يسافر الدكتور؟
- إلى أوروبا لحضـور المؤتمـرات.. كان قد عاد مـن ألمانيا منذ شهرثم كان في الواحات البحرية لمدة أسبوع تقريبًا..
- إذن فآخر رحلاته كانت إلى ألمانيا والواحات البحرية؟
- نعم

فتحـتُ هاتفي وأخرجـتُ صورة لهـا قائلا: هـل تفهمين شـيئًا من هذه الكلمات؟

لم أعـرف أن هـذا الجبـل يحمل كل هـذا القـدر مـن الغموض.. حولـه هالة مـن الخـوف والإشـاعات لكنهـا أبـدًا لا يمكـن أن تصل إلـى مـا وصلـت إليـه فـي رحلـة بحثـي.. طبيعـة بكـر لـم تلوثهـا يد الإنسـان.. تشـعر أنك وحـدك وسـط عالم خاص بـك.. أعـرف أنني أسـتخدم لغـة غيـر علميـة.. غيـر محايـدة.. لكـن سـحر هـذا الجبل يجعلـك تنطـق بالشـعر دون صوت يخـرج أو لسـان يتحرك.. سـحر جعلنـي أخلف وعـدًا قطعته بـألا أتكلـم أبدًا لكنـه يأبـى إلا أن يخرج مني الحقيقة كاملة..

هناك في القلعـة الإنجليزيـة وخلف مدفع تشرشـل تنتهـي الرحلة نحو حقيقة مذهلة.. وقصة لا يصدقها عقل..

البداية في القارة.. فمنـذ دخلت الغرفة الثالثة فـي ذلك القصر وأنا أعرف أن وراءها لغزًا رهيبًا..

نظـرت الأم إلـى الرسـالة وبـدا عليهـا التأثـر فلمعـت الدمعـة فـي عينيهـا.. رفعـت رأسـها لأعلـى تباعـد السـقف فـوق رأسـها فكأنـه صحـراء بيـداء تقـاس بالأميـال... مكثـت علـى هيئتهـا هـذه فتـرة مـن الزمـن ثـم اسـتدركت وهـي تقـول: نعـم هـذه هـي كلماته فـي آخـر بحـث كتبـه وقـد سـعى إلـى كتابتـه كعادتـه بيـده علـى الحاسـوب لكـن آلام ظهـره لـم تمكنه مـن ذلـك فبحث عـن مكتب يكتب فيه بحثه.

- وما هو السر الذي كان سيبوح به؟

- كان قد اكتشف غرائب وآثار تاريخية ستغير نظرة العالم إلى الحضارة المصرية ودونها في بحثه الذي فقد معه..

- وهل تعرفين الجبل الذي كان يتغنى به؟

- نعم أعرفه إنه جبل الإنجليز في الواحات البحرية فقد كان مغرمًا به.. وقد كان يزوره في العام الواحد أكثر من ست مرات..

- والغرفة الثالثة ماذا يقصد بها وأي قصر؟

- لا أدري ربما يقصد الفندق.. ففي الباويطي فندق اعتاد النزول به اسمه قصر الباويطي..

صمتتْ لحظات ثم قالت: ولعله كان يقصد القصر المهجور في الباويطي فقد كان يرى أنه من عجائب الآثار المصرية التي لم تنل حظها من الشهرة..

وماذا يقصد بالقارة؟

لا أدري هل يقصد أفريقيا أو أوروبا مثلا..

كان سؤالا أكثر منه إجابة وحيرة زادت حيرتنا..

***

(8)

خرجتُ من بيت الدكتور عادل ومعي أماني التي أوصلتها حتى بيتها ونحن نتكلم.. فقد حصلنا حقًا على معلومات قيمة.. جبل الإنجليز في الباويطي.. وهي واحة في الصحراء الغربية. هي عاصمة الواحات البحرية أي أنها مدينة كبيرة.. كلمة غرفة وقصر لها معان كثيرة.. قد تكون غرفة في فندق أو في قصر قديم.. يا لقد وصلنا إلى نقطة ميتة.. لا يوجد طريق واضح نسير فيه سوى جبل الإنجليز فيواحة الباويطي في الواحات البحرية..هل تكفي هذه المعلومات لأي شيء.. تركت أماني عند بيتها وقررت مواصلة السير حتى بيتي رغم أنه يبعد ثلاث محطات أتوبيس كاملة.. رغبت في السير لأفكر في كل ما حدث..

أشعر بالضياع واليأس.. لا شك أننا تأخرنا كثيرًا في البحث عن سعيد.. فقد مرت ستة أيام منذ اختفي.. على الرغم من كونه يعمل عندي فنحن أصدقاء منذ خمس سنوات.. منذ جاءني وعمل معي ثم عملت أماني.. فيه نشاط وذكاء ومهارة.. بل تهور في أمور

كثيرة.. أتـردد في قبول عمل لضيـق الوقت فيقبله وينجـزه.. يحقق لنا ذلك أرباحًا كبيرة.. لكنه يحملنا ضغوطًا عالية في العمل..

أشـعر أنني نـذل.. شـعور انتابني وأخـذ يؤرقنـي.. لو كان سـعيد مكاني مـا تـردد.. ولخرج فـورًا للبحـث عني فـي كل مـكان. فيه من الشهامة ما يبهرني فكيف لا يبهر أماني!

أما أنا فلقد خشـيت على نفسـي.. وعلى سـمعة المكتب فلم أبلغ حتى الشـرطة للبحث عنه.. هل النذالة طبع متأصل في؟! كنت أشـعر وأنا أنظـر لأماني أنهـا تكاد تصـرخ في وجهي بهـذا الـكلام.. ولكنها لا تجرؤ علـى البوح بهـا.. هي الحقيقـة التي نجبـن كثيرًا عـن رؤيتها مع ذلـك نتعامـل معهـا رغمًـا عنـا. فليس مـن طبعـي اتخـاذ مواقف شـجاعة.. حتـى أماني التـي جـاءت للعمـل منذ سـنتين لـم أفكر في اتخـاذ خطـوة نحوها حتـى فاز بهـا سـعيد.. التـردد والتفكيـر العميق والتأخـر في اتخـاذ القرار تلـك من سـماتي.. تمنحني تلـك القدرات درجة عالية من العمق.. لكنها تضيع على فرصًا كثيرة..

عندمـا أخبرنـي سـعيد وأمانـي خبـر خطوبتهمـا فرحـت لهما في الظاهر وإن كان في داخلي أسئلة كثيرة.. ماذا في سعيد يزيد علي؟

إننـي أكثر منـه مالا فأنـا صاحـب العمل.. بل أشـد وسـامة منه بمراحـل فهـو أسـمر رفيـع.. خشـن الملامـح.. لفحـت الشـمس بشـرته كمعظـم بنـي جلدتـه.. ولكننـي أبيـض ذو جسـد متناسـق وملامـح أكثر وسـامة منه بمراحـل.. بل لا توجـد بيننا ثمـة مقارنة

في أي شيء. نحن الثلاثة متقاربون في السن.. وأنا أفوقه في المال والخلقة..

ومع هذا فلم تفكر في أو تطمع في الزواج مني.. وإنما نظرت إلى شاب يعمل عندي دوني في كل شيء..

شعرت بالمهانة لتخاذلي وضعفي عن اتخاذ قرار.. لا لا يمكن أن يستمر هذا الوضع.. سأثبت لأماني أنني لست هكذا.. بل على أن أثبت لنفسي أولا ذلك الأمر.. أمسكت هاتفي واتصلت بأماني.. التي ردَّتْ بذعر خيرًا هل حدث شيء؟

كان لديها حق.. فقد كنا معًا منذ دقائق.. قلت لها مطمئنًا: لا شيء.. فقط لقد قررت السفر إلى الباويطي للبحث عن سعيد فهل تحبين أن تأتي معي؟

جاء سؤالي لها مفاجأة غير متوقعة.. لمحت السعادة في صوتها وهي تقول: طبعًا طبعًا.. سأتي معك ولكن ألن تبلغ أحمس وهاميس قد يفضلان المجيء معنا؟

نعم تفكير جيد لقد فكرت في هذا فعلا ولكني اتصلت بك أولا..

سأتواصل معهما ثم أعود للاتفاق معك وإبلاغك بما تم..

***

(9)

اقتربت السـاعة من السـابعة صباحا.. وصلنا موقف المنيب فنزلنا نسـير داخـل الموقف ثـم هتفـتُ صارخًا فـي أمانـي التي تجـر حقيبة ثقيلة: أسرعي فقد تأخرنا كثيرًا..

حاولـت أماني أن تسـرع لكن حملها الثقيـل أبي.. فأكلمنـا طريقنا ببطء حتى وجدت أحمـس وهاميس فـي مواجهتي.. ابتسـمت قائلا: ظننت أننا سننتظركما!

فغمغم أحمـس: هل صديقكما أعـز عليكما من والدنـا عندنا.. ثم نحن نسكن قريبًا من هنا..

جذبتني أمانـي قائلة: وليد هيـا لا وقت نضيعه.. تحركنـا في اتجاه سـيارات الواحات. سـرعان ما اسـتقر الرباعي فـي السـيارة الأجرة.. اكتمل عدد الركاب وتحركت السيارة..

كانـت السـيارة تسـير بدايـة في هـدوء فـي شـوارع الجيـزة حتى أخـذت طريـق الواحـات الصحـراوي.. فانطلقـت بسـرعة عاليـة..

وكانت جميع نوافذ السيارة مغلقة إلا من نافذة السائق المفتوحة قليلا رغم عدم وجود تكييف بالسيارة.. الجو خانق وحار.. ولا شك أن الجو المغلق فيه خطورة نقل عدو البرد والأمراض التنفسية.. كنت أشعر بغضب.. ولكن الغريب هو تقبل جميع الركاب للأمر..

كانت تجلس في الخلف امرأة كبيرة في السن بجوار أماني نظرت المرأة إلى أماني: وقالت أنت غريبة عن الواحات؟

تعجبت أماني وقالت: نعم.. كيف عرفت؟

- أهل الواحات يعرفون بعضهم بعضًا.. وحتى الغرباء نعرفهم من كثرة مشاهدتهم في المواصلات أو الواحات.. أنت غريبة؟
- أنت من الواحات؟
- نعم ولكني أزور القاهرة كثيرًا.. طريق الواحات صعب وخطير وغير آمن
- وإذا كنت تعرفين هذا فلم تسافرين كثيرا عليه؟
- أكل العيش.. أنا أُحْضِرُ منتجات الواحات وأبيعها في القاهرة مرتين في الشهر.
- وكيف الأحوال في الواحات؟

- أسوأ من الطريق الذي نسير عليه.. لا توجد مواصلات داخلية..والخدمات الحكومية غير موجودة تقريبًا.. الواحات بعيدة عن العين الحكومية والاهتمام.. والعِزَب في خطر دائم..

كان الطريق للواحات غير ممهد..امتدت إليه يد الإهمال.. فالرصف قديم.. والطريق متهالك مكسر..يحتاج سائقًا ماهرًا يعرف الدروب بين الحفر.. ففهمت سر كلمات العجوز عن سوء حال الطريق وخطورته..

كنت أجلس خلف السائق الذي أغلق فجأة تلك الفتحة الصغيرة في نافذته.. وكدت أجن وأصيح فيه لولا أنني شاهدتُ من بعيد ثورة الطبيعة التي كانت تلقي برمال كثيفة على السيارة..

على الطريق تبدو آثار حوادث الطريق المعتادة من سيارات مهشمة بعضها قديم وزجاج مكسور.. لكنه كثيف بشكل ينذر بخطر.. ويثير الرعب في نفوس ركاب هذه السيارة ومرتادي هذا الطريق الضيق.

امتدت الصحراء أمام عيوننا بلا نهاية.. والكل في حالة صمت تام إلا من صوت حديث المرأة مع أماني الذي يتوقف ثم يعود.. كنت أسمع صوت المرأة بوضوح لأنه كان مرتفعًا بصورة واضحة. ليس على الطريق علامات أو إشارات.. توقفت السيارة بعد ساعتين ونصف في مكان يبدو قاحلا إلا من بعض الكاوتش القديم

المتراص فـوق بعضـه على جانبـي الطريق دلالـة على موضع ورشـة تصليـح الكاوتش السـريع علـى الطريـق.. وبجـواره بناء صغير يشـبه العشـة.. قـال السـائق: سـنتوقف هنـا عشـر دقائـق لمـن يرغـب فـي الاسـتراحة أو دخول الحمام حتـى تصليح الاسـتبن.. ثم نـزل ونزلنا معه واتجهنا إلى كشـك صغير لبيع السـجاير وبعض الحلوى اشـترينا بسكويتا وجلسـنا على مقاعد من السـعف وجريد النخيل وطلبنا شايا وقهـوة.. كان طعـم الشـاي متغيـرًا فتناولـت كوبـا مـن الماء وشـربته عرفت أن طعـم الميـاه مختلـف.. يبدو أننـا قـد اقتربنا مـن نهاية هذه الرحلـة.. فقـد بـدت تظهـر آثـار الواحـات.. عشـر دقائق وعدنـا إلى السيارة مرة أخرى وواصلنا رحلتنا.. سارت السـيارة في طريقها وسط الصحـراء.. الطريـق كلـه متشـابه..وفجأة ظهـرت عدة بيـوت صغيرة وسط تلك الصحراء القاحلة ثم: حمد لله على السلامة يا جماعة

هـل هـذه هـي الباويطـي عاصمـة الواحـات البحريـة؟! قريـة من قبل التاريخ

نزلناوسـط قرية قديمة تكاد تخلو من كل عناصر الحياة.. فلا ناس ولا شـرطة ولا حيوانات..والحميـر والخيـل والإبـل؟ يـا اللـه حتـى الـكلاب غيـر موجـودة.. نحـن فـي قريـة الموتـى.. أيـن علامـات الحياةوحتى البيـوت قصيرة معظمهـا بالطوب اللبن كأنهـا من عصور ما قبل التاريـخ.. وتبدو من بعيد جبـال عالية وصحراء بـلا نهاية..هل ذهبنا إلى الواحات أم عدنا إلى العصور القديمة..

أربع ساعات محشورين في داخل هذا القبر المتحرك.. حتى نصل هذا القفر.. الجو حار خانق نظرت إلى هاتفي وجدت درجة الحرارة 46 درجة.. اختفت شبكة الهاتف طوال الطريق ..لكنها تظهر الآن على استحياء..تحركت السيارة ثم اختفت بعد نزول كل الناس الذين سرعان ما اتجه كل منهم إلى ناحية فوقفنا وحدنا.. ولم ندر ماذا نفعل!

على مقربة منا وجدنا المرأة التي كانت معنا في السيارة..نظرنا جميعًا نحوها نلتمس النجدة منها فاقتربت منا وهي تقول: لا تقلقوا هذا هو المعتاد في الواحات ... لحظات وتصل النجدة..

كانت النجدة على شكل صوت معروف لنا جميعًا.. التوكتك.. تنفسنا الصعداء عندما رأيناه.. ياه لقد وصلنا إلى مرحلة أن يكون صوت التوكتك علامة الأمان والإحساس بالحياة وسط هذا العالم.. هذا شيء ما تخيلنا يوما أن يحدث.. إحساس لا يمكنك وصفه ولا كنا نظن يومًا أنه يحدث.. ما هذا العالم المقلوب.. وصل التوكتك ووقف بجوارنا ونزل منه فتى صغير..

ابني حِمِيد في ثانية ثانوي: خدهم يا حِمِيد للفندق ... ثم ارجع لي مرة ثانية..

حاولنا معها أن تذهب هي أولا لكنها رفضت وأصرت على موقفها فحشرنا أنفسنا في التوكتك ومعنا حقائبنا.. نظرت المرأة قبل تحرك التكتك وقالت: أهل الواحة لا يرحبون بالغرباء ولا يقولون لهم أية حقيقة..

قال حميد: هل تعرفون فندقًا محددًا أم أختار لكم فندقًا أعرفه؟

قالت هاميس: اذهب بنا إلى فندق قصر الباويطي..

هـز حميد رأسـه وتحـرك بالتوكتـك في شـارع طويلمرصـوف ثم اتجهنا يمينًا. فيسـارًا وسـط البيوت الضيقـة. حتى وصل بنـا في نهاية شـارع ثم اتجه يمينا فوجدنا أنفسـنا وسـط المقابر..كان التوكتك يمر بنا وسـط المقابر يتلوى بينهـا متفاديًا المـرور فوقها، وكأنـه يعبر فوق جثاميـن الموتـى المقبوريـن.. شـارع وحيـد مرصـوف فـي الباويطي وكأن المدينـة لا تحوي سـواه ثـم باقي الطريـق دروب ضيقـة وكأنها قرية صغيرة

سور كبير ثم فناء واسـع قاحل دخله التوكتك مسـرعًا حتى وصلنا إلى مكان يشـبه الاسـتراحة أرضيته مرتفعة قليلا عـن الأرض ومغطاة بالرخام القديم الذي كلح لونه..

أنزلنا حِمِيد في الفندق..ناولته عشـرين جنيها فأخذهـا ثم أعطاني الباقـي لقـد رد خمسـة عشـر جنييهـا.. معقول أخـذ خمسـة جنيهات فقط.. تعجبت فقال لي: أنت لسـت في مصر لا تدفع لأي توكتك هنا أكثـر مـن خمسـة جنيهـات. دخـل حِمِيـد معنـا ولـم يتركنـا إلا أمـام الموظف المختص وأخذنا رقمه قبل أن يرحل..

***

(10)

كان المبني كما توقعتُ استراحة قديمة يبدو أنها كانت مخصصة للجيش الإنجليزي فقد كان الطراز المعماري الإنجليزي باديًا عليها..

ساحة الاستقبال تشبه مدخلا لمستشفى صغير.. مفتوح من الاتجاهين ببابين زجاجيين.. دخلنا من باب وجدنا طاولة الاستقبال على يسار الداخل ويقف خلفها شاب وفتاة.. وفي المواجهة باب زجاجي آخر تظهر من خلاله حديقة.. غالبًا هذه حديقة الفندق خلف المبنى وليس أمامه.. وقفنا عند طاولة الاستقبال وألقينا التحية.. وطلبنا حجز غرفتين مزدوجتين.. أخرجنا البطاقات الشخصية.. تعرف الموظف والموظفة على أحمس وهاميس أنهم أبناء الدكتور عادل لكثرة تردده على الفندق ونزوله به فرحبوا بنا

ونزلتُ مع أحمس في غرفة واحدة في الدور الثاني.. وهي الغرفة التي اعتاد الدكتور عادل النزول بها كما أخبروني في الفندق.. بينما أقامت أماني مع هاميس في ملحق جانبي خاص بالنساء في الدور الأرضي وسط حديقة جانبية ملتفة الأشجار..

دخلنا الحجرة فغيرنا ملابسنا.. وألقيت نفسي على السرير.. فغرقت في النوم ولم أدر كممر من الوقت حتى استيقظت على صوت طرقات على الباب.. قمت متكاسلاوفتحتُ الباب فوجدتُ عامل الفندق يخبرني أن الغداء معد.. وعلينا النزول لتناوله في حجرة الطعام إلا إذا رغبنا في تناوله هنا..

أيقظت أحمس وبدلنا ملابسنا.. بدأت أتأمل الحجرة كانت بسيطة مفروشة بالفرش المحلي فلا توجد ثلاجة أو تلفزيون أو تكييف.. فحصت الغرفة فحصًا سريعًا لم أجد فيها ما يجذب الانتباه.. شاهدني أحمس أبحث في الغرفة فأخذ يبحث معي.. فلما لم نجد شيئًا نزلنا معًاإلى حجرة الطعام.. وجدنا أماني وهاميس في انتظارنا..كانت جلسة الطعام بدوية في خيمة معدة لذلك.. جلسنا جميعًا نتناول الطعام الواحاتي اللذيذ الذي أعدوه خصيصًا لنا..

كان الفندق شبه خاوٍ من النزلاء فلم يكن فيه سوى عدد قليل من النزلاء من السعودية فرنسيين كما أخبرنا موظف الاستقبال حسان

انتهينا من الغداء ثم اتجهنا نحو حديقة الفندق لنحتسي الشاي والقهوة.. أخبرت الفتاتين بما حدث في الغرفة وأن البحث الأول لم يثمر عن شيء غريب أو له قيمة.. وهكذا فقدنا الخيط الأول في سبيل بحثنا عن المفقودين وسر اختفائهما.. لم يكن في ذهني خطة معينة للبحث أو طريق محدد نسلكه.. ولم نتفق على شيء.. لقد

جئنا هنا بهدف عام دون ترتيب.. هو البحث عن المفقودين وسر اختفائهما. فهل نسير في طريق صحيح أم لا؟

أفقت من أفكاري على أماني وهي تهزني وتشير إليَّ نظرت حيث أشارت فرأيت حسان يتابعنا بعينيه فأشرتُ إليه فحضر مسرعا فقلتُ: ما هي اهم معالم الباويطي؟

- المعالم هنا كثيرة عين سَجَام الساخنة التي تشفي من الأمراض والمناطق الأثرية كثيرة مثل معبد الإسكندر الأكبر ومقابر البطالمة وفيها رسوم فرعونية جميلة وبعض الكنائس القديمة والدير.. وهنا متحف الباويطي من المومياوات الذهبية، مقبرة بانتيو، ومقبرة أمنحتب حوي حاكم الواحات وهناك أيضًا منطقة القصر القديم (قصر علام) وجبل الإنجليز
- نريد زيارة بعض هذه الأماكن
- هذا سهل جدًا ومتاح في أي وقت. بأيمكان تحبون أن تبدءوا
- جبل الإنجليز؟
- آه من البداية!
- ماذا تقصد؟
- لا شيء فقط هذا الجبل مرتفع جدا وفي الصحراء ولا تصلح معه وسيلة مواصلات عادية لابد من سيارة جيب ذات دفع رباعي..

- دفع رباعي
- نعم الطريق وعر وغير ممهد.. فهو طريق طبيعي يسير في دروب.. ولا تسير فيها إلا سيارات ذات طبيعة خاصة..
- هززت رأسي علامة الفهم: آه.. آه..
- حسنًا سأتدبر الأمر.. متى تحبون القيام بهذه الرحلة؟
- الآن إن كان ممكنًا!
- أعطني بعض الوقت وسأرى إمكانية ذلك..

غاب حسان وعاد بعد دقائق قائلا: سيحضر الأسطى سالم وهو من اهل الواحة بعد عشر دقائق.. صعدنا مسرعين إلى الحجرات لنعد أنفسنا لرحلة الذهاب إلى جبل الإنجليز.. ذلك الجبل المبهر الذي سمعنا عنه.. ارتدينا ملابس خروج خفيفة

جلسنا نتسامر ونتحدث ومرت دقائق أشار لناحسان فتبعناه حتى مدخل الفندق.. وجدنا سيارة سوداء جيب دفع رباعي قابعة أمام الفندق.. يقف بجانبها رجل أسمر البشرة.. تهلل وجهه عندما اقتربنا منهورحب بنا بحرارة وعرفنابنفسه.. قائلا اسميسالم.. وهذه سيارة شركة سياحية هنا مخصصة لرحلات السفاري وسط الصحراء..

***

(11)

ركبت بجوار سالم بينما ركب الثلاثة في الخلف.. سارت بنا السيارة في عدة طرق جانبية ببطء.. ثم ظهر طريق يبدو أنه الطريق الرئيس مشت فيه السيارة حوالي عشر دقائق..ثم اتجهت نحو درب ضيق في الصحراء يكاد يسع السيارة بالكاد..

كان سالم لطيفًا ودودًا تعلو وجهه ابتسامة وهو يقول: الجبل من المعالم السياحية المعروفة في الباويطي يزورها السياح كل عام خاصة الإنجليز.. وبعض الألمان.. كان الإنجليز ينصبون مدافعهم فوق قمة الجبل.. وهذه فكرة اندروف قائد الكتيبة الإنجليزية في الحرب العالمية الثانية هنا تحسبًا لقدوم الألمان إلى القاهرة لاحتلالها لكنهم لم يأتوا.. رحل أندروف مع رحيل الإنجليز من مصر لكنه ترك لنا معالم كثيرة تخصه منها شارع واسع باسمه مكتوب على لوحة كبيرة وسط الباويطي وتلك القلعة العصية الحصينة التي يستحيل على أي جيش اقتحامها

سارت السيارة في دربها قرابة الربع ساعة.. ثم أخذت تدور وسط مدقات لا تظهر في الطريق بسبب الرياح التي غطتها.. حتى

ظننتُ أن سالم لن يعرف طريق العودة مرة أخرى.. أفصحت لسالم عن مخاوفي فضحك حتى بدت نواجذه وارتفع صوته بقهقهته اللطيفة.. قائلا: أنت مع سالم ابن الصحراء أعرف طريقي في الليل قبل النهار أسير في الصحراء مغمض العينين.. السيارة مجهزة بالنظام الحديث (GPS) الجبس كما يقول ابني.. ولا أعتمد عليه.. فأنا أعرف الصحراء أكثر منه.. وارتفعت السيارة وبدانا نسمع صوت حشرجة المحرك وهو يضغط بقوته صاعدا جبلا ثم توقفت فجأة فاندفع الجميع نحو الأمام بفعل ظاهرة القصور الذاتي..

هذه هي نقطة النهاية بالنسبة للسيارة فالطريق ضيق جدًا وشديد الانحدار.. ولن يمكن للسيارة أن تواصل الصعود.. هكذا قال سالم وهو يبتسم

خرجنا من السيارة وجدنا أنفسنا فوق قمة جبل عال.. اقتربنا من الحافة ونظرنا جميعًا من فوق قمة الجبل فلمحنا هوة سحيقة في الأسفل. وفوق قمة الجبل يقبع هناك مبنى مثل القلعة الحجرية أشار إليها سالم قائلا: كان الإنجليز ينصبون مدافعهم هنا ويعيش بعضهم في هذا المبنى.. أسرعنا الخطى في اتجاه المبنى قلعة قديمة على الطراز الإنجليزي لم يتبق منها سوى أطلال أربع حجرات.. حجرتان مكتملتان البناء.. وأطلال حجرتين آخرين.. مبنية بالحجارة الضخمة بارتفاع يقترب من الأربعة أمتار وعرض الحائط متر

واحد.. كيف نقل الإنجليز هذه الصخور حتى هنا.. بناء على الطراز الإنجليزي بالتقنية الفرعونية دون استخدام أية مواد لاصقة أو اسمنت.. لعلهم اعتمدوا على ثقل الحجارة أو تفريغ الهواء..

الهواء في قمة الجبل شديد ومنعش وطازج وخال تمامًا من الرمال.. تلك الآفة الملازمة للهواء التي وجدناها هنا..

ليس في القلعة الصغيرة سوانا أخذنا نتطلع إليه ونبحث في داخله لم نجد شيئًا ذا بال.. أيهما الغرفة الثالثة.. نبحث فيها لكن عن أي شيء.. هذا مكان مفتوح يزوره المئات بل الآلاف في العام.. هل يكمن فيه حل اللغز.. بحثنا نحن الأربعة في كل مكان في الحوائط والأرضيات ولكن لا شيء.. يئسنا فوقف أحمس على الأحجار ثم ارتقى فوق سطح الحجرة.. فتبعته حتى لا أبدو أقل شجاعة منه.. بدت لنا الصحراء المترامية التي تبدو بلا نهاية.. والصخور وسلاسل الجبال التي لا يحدها شيء.. تبدو فتحات الكهوف كثقوب ضيقة دقيقة.. بحر من الرمال بلا حدود.. تتوه فيه لو لم تكن خبيرًا بها.. ليس في هذا المكان أي شيء له قيمة مادية سوى منظر صحراوي ذكرني بجبال سانت كاترين.. حتى البيوت في الباويطي لا تظهر بوضوح من فوق القمة..

حاولت أماني الصعود فمنعتها خوفا عليها.. وهبطتُ مسرعًا وخلفي أحمس..

هل كانـت رحلـة ممتعـة لا شـكأنها لـم تكـن كذلـك.. ربمـا كنا سنشـعر بالمتعةونجلس مـدة أطول مـن تلك المـدة فوق قمـة الجبل لو كانت الظـروف مختلفة.. لكن بالنسـبة للمهمة التـي نحن بصددها يمكننا القـول إننـا عدنا مـن رحلة جبـل الإنجليـز إلى الفنـدق بخفي حنين كما يقولون..

***

(12)

عدنا مـن زيارتنابعد أذان العشـاء بقليـل.. كان الجو حـول الفندق والباويطـي كلها هادئًـا هدوء المـوت.. كأننا عدنـا قبـل أذان الفجر.. هذا هو المعتاد في الباويطي كما أخبرنا سالم

دخلنـا اسـتقبال الفنـدق وجدنـا موظفًا آخـر فـي اسـتقبالنا.. يبدو أصغر سـنًا من حسـان يرتدي الملابـس البدويـة: ألقيت عليـه التحية فرد باقتضاب..

اين حسان؟

لقد انتهت ورديته.

ما اسمك؟

عودة

شـعرت أنني انتزع الكلام منه انتزاعا.. لا يجيب إلا بكلمات قليلة لا تشـفي.. أيقنت انه لا يرغب في الحديث فأخذنـا المفاتيح وصعدنا الغرف وبدلنا ملابسـنا اسـتعدادا للنوم. سيأتون بالعشـاء الخفيف كما هو المعتاد في الفندق فنتناوله ثم نخلد للنوم

كنت أشعر بالغيظ من عودة فبثت مشاعري هذه إلى أحمس الذي قال: غالبًا هذا الرجل من النوع الثاني الذي أخبرتنا عنه المرأة العجوز في السيارة

أعجبتني ملاحظته وتذكرت كلماتها: أهل الباويطي لا يحبون الغرباء.. ولا يعطونهم معلومة حقيقية..

قلت له:هل لاحظت كيف كان يتحدث؟

نعم لقد كان متحفظًا في حديثه..

سمعنا طرقات على الباب كان أحمس أقرب مني إلى الباب ففتحه ووجد العامل يخبرنا أن العشاء معد في حديقة الفندق

نظر إليَّ أحمس فقلت له: أحضره هنا فنحن متعبان..

هز أحمس رأسه تأكيدًا على كلامي

قال العامل مبتسما: هناك حلقة سامر بدوية خاصة بالضيوف والجميع مدعوون لحضورها في الحديقة..

شعرت بأن كلمات العامل فيه رجاء أكثر منها إبلاغ عن موعد العشاء فهززت رأسي موافقًا: حسنًا خمس دقائق وسننزل..

تهللت أسارير الرجل فقال لي: سأبلغ الأستاذتين انكما ستحضران السامر حيث أصرتا على تناول العشاء في حجرتيهما

وتركني ونزل مسرعًا

نظر إلى أحمس متعجبًا نحن متعبان والبنـات كذلك ولذلك طلبتا العشاء في الحجرة فلماذا وافقت؟

هذا الرجـل يبدو انـه يدعونا للحضـور ويتمنى ذلك فلـم أحب ان أخيب رجـاءه.. خاصة وأنه ليس كعودة.. سـكتُ لحظـات ثم نظرت إلى أحمس وقلت له:

هل تصدق أنه لو كان عودة الذي جاء لصممت على الرفض

ضحك أحمس وضحكت معه وقال: معك حق والله

نزلنا ردهة الفندق وجدنـا العامل في انتظارنـا وصحبنا حتى خيمة السـامر فـي جانـب الحديقـة.. ثـم اتجهنـا ودخلنـا خيمة العشـاء في حديقة الفنـدق.. وكمـا توقعت لم يحضر سـوى عـدد قليل جـدًا من نزلاء الفندق أقل من عشـرين.. ثـم حضرت أماني وهاميس وجلسـنا على المجلـس العربـي كمـا يقولـون الأرض فوقها حصيـر ومفارش بدوية فوقها عدد من الوسادات..

وجـدت فـي انتظـاري سـالم الـذي جلـس بجـواري ووجدت مجموعـة مـن البـدو يجلـس كل واحـد منهـم بجـوار جماعـة من السياح

أحضـر رجـلا خروفًـا حنيـذًا وذبحوه مباشـرة فـي الخيمـة.. وتم تنظيفـه بسـرعة واحتـراف وبـدأ رجـلان فـي شـيه علـى نـار الحطب المجهز لهذا الغرض بينما نستمع نحن إلى الغناء

قال سـالم: الطبيعي أن العشـاء في العـادة يكون خفيفـا في الفندق لكـن اليوم لـه خصوصيـة وهـذا الحفـل هدية مـن رجل مـن الخليج شـفيت زوجته فـي ماء سـجام فأحضـر الخـروف والفرقة الموسـيقية هذه على نفقته الخاصة

كانت فرقة موسـيقية مـن رجال الواحـات علـى آلات صنعت من البيئـة.. كان عـدد الفرقـة كبيـرًا.. أكبر مـن الجمهـور.. بـدأت الفرقة بأغنية ترحيبية لفنان بلهجة عربية واضحة

أهلا يا أحبابي مرحبتين

أهلا يا أحبابي

يا جماهيري وأصحابي

عرباني مرحبتين

يا كل اهلي واجرابي

يا مرحب باللي حاضرين

يا مرحب بكل العربان

عرب جحطان وعدنان

ذكـر فيها المطـرب كل العـرب فـي الـدول العربيـة والمحافظات المصريـة المختلفـة بصـوت شـجي ثم انتقـل إلـى أغاني أخـرى عن الغربة والهجر والحب والحكمة

ملت على سـالم وهمسـت في أنـه متعجبًا:هذا مطـرب رائع كيف لايكون مشهورًا وهو يملك كل هذه الموهبة

ضحك سـالم ضحكة عالية لفتت إلينـا الانتباه وقال: مـن هذا غير المشهور؟!

هـذا فنـان بـدوي معـروف فـي أوروبـا والعالـم العربـي وتكلفـة حضـوره بفرقتـه لا يمكـن أن تتحملهـا إدارة الفنـدق هنا.. إنـه الفنان سيد المعازى..

شعرت بالخجل من كلمات سـالم وشغلت نفسـي بأطباق الطعام والحلـوى التي بـدأ توزيعها على الحضـور.. انتهى الحفـل في حدود الثانيـة عشـرة فقمنـا جميعًـا بإيعـاز مـن سـالم بالتوجه نحـو صاحب الدعوة وشـكره علـى تلـك الدعـوة الكريمة وتهنئتـه بشـفاء زوجته.. وجدت بجـواره عودة جالسًـا يكاد ملتصقًا به.. شـعرت انـه ينظر إلينا نظرات خاصة.. ثم ركـز نظراته على أحمس وهاميـس بصفةخاصة.. ولعلني كنت واهمًا.. ثم اتجهنا إلى النوم..

***

(13)

كنت متعبًا جدًا ووجدتأن أحمس يخبرني عن نظرة عودة له ولشقيقته.. هل علم شيئًا عن والدنا.. لا املك إجابة قاطعة لكن يبدو ان في الأمر شيئًا غريبا غير مفهوم.. نظرت إلى أحمس وجدته قد غرق في النوم.. لا أدري كما مر بي من وقت وانا أفكر حتى غرقت في النوم ثم استيقظت على شعور غريب.. لقد سمعت خطوات على باب الغرفة.. اما لعلني كنت واهما.. أسرعت نحو الباب على حذر وفتحت الباب خيل إلى أنني ألمح خيالا ميل إلى يمين الغرف.. ربما كان خيال الإثارة وما نحن فيه من قلق.. عدت إلى الغرفة وأغلقت الباب وأيقظت أحمس بهدوء ففتح عينيه سألته إن كان قد سمع شيئًا او صوتا.. فنفى ذلك.. يبدو أن التعب والمغامرة يمنحنا الخيال.. عاودت النوم.. استيقظنا في السابعة والنصف صباحًا.. نزلنا إلى بهو الفندق قابلنا حسان فاحتضنته ضاحكًا.. فنظر إلى متعجبًا قلت له: فينك يا رجل؟

لم أفهم

كيف تركتنا أمس لعودة؟!

انفجر حسـان ضاحكًا وقال: والله هو طيب جـدًا لكن هذا طبعه.. فقط لا يعرف كيف يدير حوارًا أو يتكلم مع الناس..

وكيف يعمل في مكان مثل هذا؟

لأنه مـن أبنـاء الباويطـي.. النـاس هنـا معظمهم مـن الفيـوم لأنها قريبة مـن الباويطي وسـتجد لهجتهم مختلفـة متمايزة عـن لهجة اهل الباويطي.. مثلي ومثل سالم..

سالم من العرب قال لي ذلك!

نعم هو من عـرب الفيوم قريبين جدًا مـن الباويطي.. وعاش معظم عمـره في الصحـراء.. نحن من عـرب الصحـراء الفيوم وبني سـويف والمنيـا كلنـا قبائل عربيـة.. شـرفتمونا يا أسـتاذ وليـد.. الإفطـار معد في الحديقة..

تناولنـا الإفطـار الواحاتي الجميـل.. اللبن الشـديد الحـلاوة دون إضافة سـكر والجبن والزبد والفطير.. وأقراص العجوة كل شـيء هنا صناعة محلية يدويـة.. فهم هنا يعتمـدون على البسـاطة والمحلية في كل شـيء.. تعود إلـى الحيـاة الخالية مـن التزويق والتجميـل.. هكذا قال حسان

خرجنا من الفندق.. ثم سرنا في الشـارع الرئيسي المرصوف.. لم نجـد شـيئًا ذا بـال.. اتجهنا يمينًـا فـي الطريق للسـوق كما أشـار أحد

الأهالي لنا وجدنا محلات مفتوحة ولوحات فوقها والبضائع أمامها دون حراسة وكأنها مدينة هجرها أهلها فجأة... تبدو المنازل قديمة مهجورة وكأنها قادمة من قبل التاريخ..

كنا نتمنى ان نشتري الكثير من المنتجات اليدوية انتاج الواحات فهي هدية قيمة خاصة ان سعرها رخيص وصناعتها بديعة.. امسكت الهاتف واتصلت بحميد أخبرني انه قريب مني طلبت منه الحضور على ان يقابلنا على اول الشارع المؤدي إلى السوق أسرعنا الخطى حتى اول الشارع.. وجدنا حميد ينتظرنا بالتوكتك فركبنا معه مثل الأمس.. جلست بجواره وقلت له: إلى قصر سليم يا حميد..

تمر بالمقابر في أول طريق الباويطي ولا يمكنك أن تصدق أنها مدينة كبيرة..

تقصد قارة قصر سليم قال حميد: هي في شرق الباويطي.. نظرنا نحن الأربعة إلى بعضنا البعض وقلنا في صوت واحد: القارة

تعجب حميد من رد فعلنا وقال: نعم هذا هو اسمها هكذا

هل حقًا وصلنا إلى بغيتنا؟ حلم راودنا جميعا وإن لم نتكلم أمام حميد.. تحرك التوكتك في شوارع الباويطي الضيقة..

وصلنا سريعا إلى المقبرة.. ركن حميد التوكتك بجوارها ونزل معنا.. قلت له: هل تترك التوكتك هكذا دون حراسة؟

نعـم ولو كان مـن الذهـب الخالص.. أهـم ميزة فـي الواحات هي الأمان لو تركته سنوات سأرجع وأجده في مكانه.. لم يمس.

دخلنـا القصـر أو المقبـرة التي لـم يتبق منها سـوى حجـرة الدفن التـي تقـع ناحيـة الغـرب.. سـرنا فـي طريـق جانبي مـن صنع البشـر ووصلنا إلى بئر طوله حوالي سـتة أمتار.. نزلنا سـلالم خشـبية وجدنا مدخليـن أحدهمـا ناحيـة الجنـوب.. سـرنا فيـه فوجدنـاه يـؤدي إلى حجـرة مملـوءة بالرسـومات الفرعونية ولا شـيء فعدنا إلـى المدخل الآخر فـي الناحية الشـمالية في المقبـرة المكونـة من بهو واسـع ففيه عـدة أعمـدة وثـلاث غـرف جانبيـة واحـدة منهـا فقـط فيهـا نقـوش ورسومات تؤدي إلى حجرة الدفن

ومنه إلـى المقبـرة.. كانت جـدران المقبـرة مربعة الشـكل بصورة ليسـت تامـة التربيـع والإتقـان والحوائـط مطليـة باللـون الأصفـر... وجدنا على جدران المقبرة رسومات ولوحات

هتفت هاميس: هذه اللوحات من كتاب الموتى

فحصنـا حجـرة الدفـن وجدنـا لهـا مدخـلا سـكنه مسـدود بكتلة ضخمة من الصخور قالت هاميس: إنه من الحجر الرملي.

كان سـقف المقبـرة مدعومًا بأربعـة أعمـدة ملونة.. ليسـت مركبة فيهـا وإنما هـي عبـارة عن صخـور أو صخـرة منحوتـة فـي المقبرة.. وفيهـا عـدة تيجـان منحوتـة علـى شـكل زهـرة بـردى. وجدنـا عـدة رسـومات مكتوبة على الجـدران والأعمـدة والمقبـرة تأملتها هاميس

وقالـت: اسـم واحـد مكـرر علـى جميـع الجـدران والأعمـدة.. هو (جدآمون إيوف عنخ)..

وفـي الغرب مـن مقبـرة جد آمـون إيـوف عنخ تقـع مقبـرة أخرى مكتوب عليهـا باتنتيـو وقـد أخبرتنـا هاميس أنه ابـن جد آمـون إيوف عنخ صاحب المقبرة الأولى على بعد حوالي خمسة عشر مترًا..

أين يمكـن أن يكون حـل اللغز؟ هل في هـذا القبو الـذي لا يوجد فيه أي شيء من معالم القصر سوى اسمه؟!

***

(14)

وقفنا وسط المقبرة لا ندري ماذا نفعل؟ هذا المكان هو أملنا الوحيد.. هل وصلنا إلى طريق مسدود.. كان الإحباط واضحًا على وجوهنا فتعجب حميد وقال: هذه ليست وجوه اناس جاءوا يزورون القارة

هل تبحثون عن شيء معين؟

قلت له نبحث عن ممرات..ذات طبيعة خاصة هنا.. ممر ربما يكون مختلفًا فيها غرفة خاصة هي الغرفة والغرفة الثالثة التي قرأنا عنها في الكتب

الممرات هنا كثيرة.. والحجرات كذلك وكلها ممرات وهمية كالشراك الخداعية..

هل تعرفها يا حميد؟

طبعًا أعرفها كلها.. ولكني لا أعرف ماذا تقصدون بالغرفة الثالثة.. عمومًا تعالوا معي. سأريكم الممرات والغرف كلها..

سـار أمامنا حميـد وبدأ يتنقـل بنـا.. ندخل ممـرًا ونخـرج منه إلى آخـر.. حتـى دخلنـا ممـرًا ضيقًـا علـى يميـن حجـرة الدفـن.. قـال حميد:هذا من الممـرات التي صنعـت لخداع لصـوص المقابر.. وأنا أحفظها جيدًا. فهي خالية من أي شيء..

كان الممـر بالـغ الضيـق يسـع فـردًا واحـدًا.. فتـح حميد كشـاف موبايلـه.. وخفض رأسـه ثـم جثا علـى ركبتيـه وعبـر من فتحة تشـبه الشـباك في الأرض ففعلنا مثله وعبرنا من الفتحة. ثـم وقف وتبعناه.. سـرنا ممـرا طويـلا فيـه عـدة حجـرات خاليـة مـن أي شـيء إلا مـن الجـدران المبنيـة بالحجـر ومملـوءة بالرسـومات الفرعونيـة.. كان عددها سـت حجرات.. دخلنـا حجرتين ثـم وصلنا إلى الغرفـة الثالثة وجدناها مملوءة برسـومات خاصـة لأحمس وهو يقود جيوشـه راكبًا العجـلات الحربيـة وقفنـا جميعًـا فـي الحجـرة الضيقـة التـي تسـعنا بالـكاد.. وأخذنـا نتأمـل روعـة الفنـان المصـري القديـم فـي تلـك الرسـومات البديعة التـي ما تـزال تحتفظ بجمالهـا وتظهـر فيها روعة الفنان المصري القديم..

هل يكمن سر اللغز هنا ونكون وصلنا أم سنعود إلى المربع صفر؟

لا يوجد شـيء في تلك الحجرة يمكن البحث فيـه.. فعلا لا يوجد شـيء سـوى تلك الرسـومات البديعـة.. معقـول هـل اللغز فـي تلك الرسـومات بحثنا جميعا في تلك الرسـومات فلم نجد فيها شيئًا غريبا كلها رسومات منحوتة في الحائط بصورة مجسمة بديعة..

كانـت يـد أمانـي تمـر علـى الرسـومات المجسـمة ببـطء.. فجأة توقفت يدها وقالت: هنا البروز أعلى من أي مكان غيره..

هرع الجميـع إليها وبدأت يدهـم تدور حول العجلـة الحربية التي يركبهـا أحمـس.. أدرتُ العجلـة فبدأت تـدور ببـطء فعاونني أحمس حتى دارت نصف دورة وسـمعنا صوت حجر يتحرك وكوة في أسـفل الحائط تظهر في الحجرة..

وقفنـا مبهوتين أمام تلك الفتحـة التي ظهرت في أسـفل الحجرة.. ثم نظرنا إلـى حميـد الـذي كان مذهـولا مثلنـا.. وهتف: ما هـذا لقد دخلتُ هذه الحجرة مئات المـرات ولكن لأول مـرة أرى هذه الفتحة العجيبة.. اتخـذَ حميد المبادرة ووجـه الضوء نحو الفتحـة.. فظهرت مسـاحة متصلة مع أرضيـة الغرفـة تُظْهِر لنا حجـرة مماثلـة لتلك التي نقـف فيها..خطـا حميـد داخـل الفتحـة وتبعته ثـم أحمـس وهاميس وأمانـي.. وقفنـا قبل درجـات السـلم نتأمل حولنـا.. وجدنـا عجلتين واضحتين على ظهر حائط الغرفة التي كنا فيها..

أمسـك حميد بواحدة وأدارها ببـطء فوجدنا حائطًا يتحرك كاشـفًا عن درجـات من السـلم الحجـري القديـم الذي نـراه فـي كل المقابر الفرعونية.. توقفت العجلـة عن الدوران فتركها حميد وأمسـك الثانية فادراها وجدها تغلق الفتحة التي دخلنا منها..

***

(15)

كنت أخشى شيئًا خطيرًا فأمسكت باليد الثانية وأدرتها مرة أخرى.. يا للكارثة إنها تدور في اتجاه واحد فقط.. نحو غلق الفتحة..معقول!إنها تفتح من الخارج فقط.. لقد صرنا محبوسين في هذا المكان.. هل هذا الباب مخصص كشراك خداعية للصوص المقابر فيدخلون ولا يخرجون منه؟ أضاء كل واحد منا كشاف هاتفه.. وبدانا نتفحص المكان.. حجرة مشابهة للحجرة السابقة التي كنا فيها.. يبدو أن الأمر ليس سهلا.. ليس أمامنا طريق سوى أن نهبط السلم المؤدي للمجهول..

طلبت من الجميع إغلاق الكشافات والاكتفاء بواحد فقط حتى نحتفظ بالطاقة التي في الأجهزة.. فنحن لا ندري شيئًا عن المجهول القادم.. وبدأنا ننزل السلم ببطء.. تقدم حميد وكنت خلفه.. وتبعني أحمس ثم هاميس وأماني.. سرنا على شكل سلسلة متماسكة مترابطة..

السلم طويل جدًا لقد تجاوزنا الخمسين درجة ولم نصل إلى نهايته.. إلى أين يؤدي بنا.. توقف حميد وتوقفنا معه.. لقد انتهى

السـلم ووقفنا في مسـاحة عريضة من الأرض ممر بعـرض ثلاثة أمتار منحوت فـي الصخر عليـه كتابات ورسـومات.. اقتربـت هاميس من الحائط وبدأتْ تقرأ:

سيكننرع

كاموس

أحمس

التفـت إلينا وهـي تقـول: علـى الحائـط أسـماء الملـوك الفراعنة الثلاثة الذين حاربوا الهكسوس..

وجدنا في الحجرة ثلاثة ممرات.. وقفنا في حيـرة من أمرنا خلفنا السـلم وفي كل حائط فتحة.. اقتربنا من الفتحـة الأولى ووجهنا ضوء المصباح إليهـا.. وجدنا ممرا طويـلا اتجهنا نحوه ثم عدنـا ونظرنا في الممريـن الآخرين.. نسـخ مكررة منـه.. أين نسـير.. هل نسـير معًا أم نتفـرق ويدخل كل واحـد منا في ممـر.. في النهايـة اتفقنا على السـير معًا فنحن لا ندري شيئًا عن المجهول الذي ينتظرنا..

عدنـا إدراجنا حيـث الغرفة عنـد نهاية السـلم.. اتجهنا إلـى الممر الأول علـى اليمين.. هـو ممرصخـري منحوت فـي الجبـل. وجدناه طويلا وفيـه عدة حجـرات على اليميـن واليسـار.. رأينا عـدة معدات في بعـض الغـرف وهيـاكل عظمية قديمـة ولا شـيء يلفـت الانتباه.. سرنا فيها ثم وقفنا أمام حائط صخري مصمت. بلا أي منفذ ولا طريق..

عدنا إلى الحجرة الرئيسة التي تشرف على الممرات الثلاثة. دخلنا الممر على اليسار وجدناه نسخة من الممر السابق تمامًا.. مغلق بحائط أصم في المنتصف.. هل تكون النهاية هكذا بلا منفذ ولا أمل في الخروج.. هل المدخل شراك للمات؟

ليس أمامنا سبيل واتجهنا إلى الممر الثاني الذي يقع في المنتصف في مواجهة السلم.. سرنا فيه لا يوجد أي شيء على الإطلاق لا رسومات أو كتابات.. مجرد ممر طويل بعرض مترين ولا شيء.. لكن الغريب أنه جيد التهوية.. لم نشعر بضيق التنفس أو درجة الحرارة العالية التي نشعر بها في الباويطي كلها، يميل الممر يسارا ثم يعتدل.. هكذا طوال سيرنا..

سرنا فترة ليست بالقصيرة في ممرات متعددة متعرجة معتمدين على كشافات الهواتف..توقفنا فجأة أمام نهاية هذه الممرات.. فأمامنا هوة سحيقة مظلمة.. هل هذه هي نهاية الممر.. هوة دائرية بشكل نصف قطر بحاجز بسيط...توقفنا عاجزين..

جميع الطرق موصدة في طريقنا إما بصخور صلدة أو هوى مجهولة. كنا نتحرك بجنون مثل الفئران المحبوسة في المصيدة.. ثم بدأنا نهدأ بعد فترة من الوقت نفكر.. وقفنا على الحافة.. وجهنا الضوء ناحية الهوة عسى أن نرى فيها بريقًا من الأمل.. أشارت أماني إلى الهوة وقالت: في القاع ماء يبدو واضحًا في ضوء المصباح..

(16)

ولكـن هـل تغيـر الموقـف؟ لا لقـد انتهـت رحلتنـا وليـس أمامنا إلا انتظار المـوت أو القفز فـي هذه الهـوة.. والموت غرقًـا هو مصير مـن يقفـز غالبًـا.. أو نلاقـي المصـدر المجهـول. المـوت فـي الهوة أو الموت جوعًا وعطشًا في هذه الممرات..

فجأة أشـار حميد بيده وهـو يقول: أعتقـد أن هناك فتحـة أو طريقًا على جانب البئر.. قبل سطح الماء على بعد مترين من هنا تقريبًا..

دقننا النظـر جميعا في القـاع.. ولم ألاحظ شـيئًا.. ربمـا كما قالت هاميس: سواد في الحجر أو ظلال.. هل من أمل غيره؟

لابد أن ينزل أحـد البئر ويتحسـس الطريق وينظر.. هـل هناك ممر جانبي ام إنه مجرد تغير شكلي في الصخر.. هكذا قال حميد..

قال أحمس: هذه مجازفـة خطيـرة.. فنحن لا ندري عمـق الماء.. أوماذا في البئر..

قلت: فعلا الموقف صعب وخطير.. ولكن هل نملك بديلا سواه..

بالفعل ليس هناك حل بديل.. تكمن خطورة هذا الحل أن من سينزل هنا سيواجه المجهول..

قال أحمس: ولكن كيفننزل دون السقوط..

قلت: إن معي بعض الأدوات البسيطة في حقيبتي فهل تصلح لهذه المخاطرة..

فتحت حقيبتي وأخرجت حبلا طوله حوالي خمسة أمتار.. سينزل شخص منا في البئر رابطًا نفسه في الحبل وسيتدلى.. ونحن جميعًا نتحد في الإمساك بالحبل.. وفور الإحساس بالخطر سنسحبه إلى أعلى.. لكن من ذا الذي سيتطوع ويهبط في هذا المجهول..

قررت تنحية جبني الذي أختفي خلفه والتحلي بالشجاعة.. وبدأت ربط الحبل حول وسطي..

نظر حميد وقال: ماذا تفعل

قلت: سأنزل إلى البئر..

قال: لا أنا الذي سأنزل؟

لم؟

إن جسمي صغير الحجم.. ويمكنكم جذبي بسرعة وسهولة.. فور الإحساس بالخطر. لكن وزنك ثقيل ويصعب سحبك بسرعة..

قال أحمس: سأنزل أنا.. أنا جسمي صغير أيضا وخفيف أكثرمن حميد

رد حميد: لقـد دخلت ممـرات كثيـرة متشـابهة.. وأعيـش عمري فيها فمن السهل أن أتعامل معها..

كان لرأيه وجاهة ويدل على شجاعة متناهية فسكتنا جميعًا..

ربطنا حميدًا بالحبل في وسـطه.. وبـدأ ينزل ببطء شـديد.. وكنت أقف على الحافة ممسـكًا بالحبل وأتابع نزوله ببط وفي فمه كشـاف.. وهو يسـتند على جدران البئر بيديه وقدميه. فجأة سـقط الكشـاف من فمه ووقع فـي الماء.. سـمعنا صـوت سـقوطه.. دون تفكير سـحبت حميد إلـى أعلى ثـم ناولته كشـافًا آخر مشـددًا عليه بضـرورة الحفاظ عليه..

عاود حميد النـزول للبئر مـرة أخرى حتـى وصل إلى تلـك البقعة التي رأيناهـا من أعلـى.. وقف حميد علـى جانب البئـر لحظات.. ثم اختفى فـي جانب البئر.. ابتلعتـه البقعة.. هززت الحبـل وجدته خفيفًا فسحبته صعد خاليا من أي شيء..

***

(17)

ياللكارثة لقد فقدنا حميد.. ماذا حدث له.. ما هو المجهول الذي سلبنا هذا الرفيق. كدنا نجن.. ونحن نمعن النظر في الظلام الدامس الذي أصبح كالظهر.. عندما وجهنا جميعًا الكشافات الثلاثة نحو الهوة..

فجأة ظهر ضوء من البئر يسطع لأعلى.. نظرنا وجدنا حميد يشير إلينا فرحًا.. ألقينا إليه الحبل وانتظرنا حتى ربط نفسه فسحبناه لأعلى.. كان سعيدًا لقد وجد ساحة فسيحة والطريق مفتوح.. يبدو أن هناك أملا في النجاة..

نزل حميد وترك الحبل فسحبناه خاليا.. ثم ربطت نفسي في الحبل وبدأت النزول بحرص شديد.. وكان تحمل أحمس وأماني وهاميس عاليًا حتى وضعت قدمي في الفتحة على بعد حوالي مترين من أعلى.. فككت الحبل.. ودخلت خلف حميد الذي دخل في ممر واسع مبني بالطوب اللبن وليس منحوتًا في الصخر كباقي الممرات..

أخـذت أتامـل المـكان الـذي نزلنـا فيـه.. جذبنـي حميـد فعدنـا مسـرعين إلى الممر وهززت الحبل فنظروا.. أشـرت لهـم على كتفي ووقفـت حتى بـدا جسـدي واضحًـا.. فهمـوا الإشـارة وتدلى جسـد أحمس هابطًا مـن أعلى إلـى البئر حتى وضـع قدميه علـى كتفي.. ثم بدأ يعتمد على جدار البئـر ويهبط حتى وضع قدميه علـى الفتحة.. ثم عبر منها ودخل الممر.. نزلـت أماني بالطريقة نفسـها وتلقفها أحمس وحميـد.. أشـرت لهاميـس أنتجمـع الحبـل وتضعـه فـي حقيبتها ثم نزلت على كتفي حتى مدخل الممر في البئر..

كان طول الممر حوالي خمسـة أمتار.. شـاهدنا علـى اليمين فتحة صغيـر بجوارهـا مقبـض.. جذبنـاه فظهر لنـا قـرص دائري.. أمسـك أحمـس القـرص وأداره فتحـرك الحائـط عـن سـلم حجـري قديم.. صعدنـا ببطء علـى ضـوء الكشـافات.. وجدنا أمامنـا ما يشـبه الغرف السـحرية.. فيها مقبـض أدرنـاه ففتح لنـا الحائـط.. عبرنا منـه وجدنا أنفسنا نقف بجوار بئر المياه..

قلـت: عرفنـا إذن كيـف يدخلـون.. لابـد أن يفتـح لهـم أحـد من الداخل.. غالبًا يقـف من يأتي هنا ثـم يعطي أي إشـارة فينظر أحد من البئر.. ثم يفتح للقادم إن كان أمانًا..

قال حميـد: وربما جلـس أحد بجـوار الحائط المؤدي إلى السـلم فيطرقون عليه الحائط فيفتحون

قالـت هاميس: أمـا مـن كان عـدوًّا فلن يعـرف ممر الدخـول ولن يستطيع الدخول..

يـا ألله إحساسـنا هـذا المـرة أمـام الهـوة مختلـف.. فنحن نشـعر بالأمـان لا الخوف كمـا كنا قبـل قليـل.. نملك طريقـا للعبـور.. إلى المجهـول نعم.. لكـن لا نقف عاجزين أمـام الهـوة دون أن نملك أي فعـل للنجـاة.. مـا زلنـا حبيسـي تلـك الممـرات المجهولـة.. لكنهـا مفتوحة الآن للحركة أمامنا..

فجأة شـاهدنا ضوءًاقادمًا مـن بعيدٍفـي أول الممر.. دخلنا بسـرعة وأغلقنا الباب المؤدي إل البئر خلفنا..

من الذي وصل.. وهل كان ضوءًا أم وهمًا؟

وقفنا علـى حافـة الممر فـي قاع البئـر ننظـر لأعلى حيـث موضع نزولنـا من البئـر.. شـاهدنا شـبحًا يوجه شـعاعًا مـن الضوء نحـو قاع البئر..

هناك فعـلا من يقف علـى حافـة البئـر... رجعت مسـرعًا ووقفت بجوار الحائط

فعـلا سـمعت صوتًا..ثمـة أشـخاص يتحدثـون خلـف الحائط.. أمعنـت النظـر.. نعم إنهمـا اثنـان يتحدثـان .... وضعنـا آذاننـا بجوار الحائـط.. كان الحديث بين اثنيـن وكان الصوت مسـموعًا ينتقل بقوة في الفراغ بين الممر بجوار البئر..

- أنا متأكد أني لمحت ضوءًا هنا
- ولكننالمنجد أحدًا فأين ذهب الضوء

- لست أدري ولكننا أيضًا لم نعثر عليهم في المقبرة ولا في الممرات. أين ذهبوا؟ اكاد أجن..

- لقد اختفوا في البئر (بصوت ساخر)

- قلت لك لا تسخر مني !

- حسنًا.. أنت تغضب عندما أواجهك بالحقيقة.. انت ترى أشياء لا وجود لها وتتوهم احداثًا خيالية..

- لا.. إن وجودهم حقيقة فعلية. ولكنك ضعيف البصر..

- حسنا.. وجودهم حقيقة.. أين هم؟

- لا أدري لكنهم هنا في الممرات؟

- ولكن لماذا أنت متأكدأنهم دخلوا الممرات؟

- إذا لم يكونوا دخلوا الممرات فأين ذهبوا؟ لقد ذهبوا أمس لجبل الإنجليز.. واليوم جاءوا للمقبرة.. ومعهم توكتكيقف أمام المقبرة..

- الممر يفتح عن طريق باب سري لا يعرفه سوانا.. فلوكانوا يعرفون معلومات حقيقية كما تقول لجاءوا إلى هنا مباشرة.. بدلا من الذهاب إلى جبل الإنجليز.. هم يبحثون عن هدف لا يعرفون عنه شيئًا وسيتوهون في المقبرة أو الممرات هذا إن استطاعوا معرفة الباب السري وطريقة الدخول إليه..

- لقد بحثنا هنا وفي الممر الثاني عنهم ولم نجد لهم أثرًا.. بقي ممر واحد لابد أن نجدهم حتى نعرف حجم المعلومات التي يعرفونها ثم نتخلص منهم..
- هذا إن وجدناهم في الممرات..
- نعم سنجدهم.. هيا بنا نواصل البحث عنهم..

اختفى صوتهم فتنفسنا الصعداء.. كنا في موقف شديد الخطورة.. لو تأخرنا قليلا في اكتشاف مدخل الممر السري في البئر لأدركونا وتخلصوا منا.. ولن يسمع بنا أحد أو يعرف مكاننا.. ولكن من هؤلاء وماذا يريدون منا ولماذا يراقبوننا.. لابد أن لهم يد في اختفاء الدكتور عادل وسعيد.. لقد بتنا في موقف خطير لا نستطيع الرجوع ولا نعرف شيئًا عن المجهول الذي ينتظرنا.. ومطاردين من مجهولين يريدون قتلنا دون أن نعرف السبب.. وليس أمامنا سوى مواصلة السير في هذه السراديب الخفية

رجعنا الغرفة السحرية وأغلقنا الحائط ثم نزلنا السلم وعدنا إلى الممر القادم من ناحية البئر..سرنا جميعًا في الممر حتى وصلنا إلى منطقة فسيحة نوعًا ما.. شممنا رائحة رطوبة لا إنها رائحة خضرة وماء فأسرعنا الخطى.. وجدنا جدولا من الماء يسير منسابًا في اتجاه متقاطع مع اتجاهنا..

ملأ حميد كفه من الماء ثم شرب وقال: إنه ماء جميل.. تذوقت الماء بكفي وجدته عذبًا.. ويسير بهدوء دون أمواج لكنه يتحرك

بسـرعة.. لعله فرع من النيل يسـير في أسـفل الصحراء لكن أين بدايته أونهايتـه.. اتجاه الماء لا شـك مـن الجنوب إلى الشـمال مثـل اتجاه النيـل.. هذا مـا اعتقدتـه.. هل وصلنـا إلـى النهر الـذي قالـوا إنه يقع تحـت الصحـراء الغربية؟. كان عـرض جـدول الماء حوالـي المترين ونصـف أو ثلاثـة أمتارتقريبًا.. هـل نجازف بالقفز وسـط هـذا الظلام إلا من ضوء الكشافات. وإلى أين نقفز؟نحن نسير إلى المجهول..

فجـأة نـزع حميـد ملابسـه العلويـة وناولنـي هاتفه ثـم قفز فـي الماء المنعـش.... أخذ يلعـب ويقفز في المـاء كأنه طفـل في الترعـة.. دعوته للصعـود لكنه قـال: إن هـذا الماء بـارد ومنعـش وليس سـاخنًا مثـل بئر سجام.. نظرنا إليه وضحكنا لأول مرة منذ دخلنا معًا مقبرة قصر سليم..

صرخت هاميس: انظر

نظرنا حيث تشـير بيدهـا إلى المـاء.. كان شـيئًا يقترب بهـدوء من حميد.. مـددت يدي بسـرعة ووجدت أحمس يصنع الشـيء نفسـه.. ولكن يبـدو أننا قد تأخرنا.. فقد ظهر على سـطح الماء تمسـاح ضخم يتجاوز المتريـن فاغرا فاه.. فبـدا كمغارة في جبل كبيـر مظلم لا يظهر منه إلا الفكين اللامعين.. اختطف التمسـاح فريسـته / حميد من الماء وبدأ يسـحبه إلى الأعماق.. مددنا أيدينا بطريقة آليـة لكننا لم نفلح في فعل شـيء.. فقد جذبه التمسـاح بفكيه وغاص به في الأعماق وسـط صرخات هاميـس وأماني.. على سـطح الماء ظهرت بقعـة من الدماء وسط دائرة في الماء في مركز اختفاء التمساح..

كان موقفًا حزينًا شعرنا معه بالرعب من تلك الميتة البشعة بين فكي التمساح التي أصابت حميد.. فقدنا صديقا مخلصا.. وفتي لا يمكن تعويضه..

هذا تمساح مصري.. هكذا قالت هاميس وهي تبكي.. وهذا يعني أنه قادم من نهر النيل.. هذا الجدول فرع من نهر النيل يمر أسفل الصحراء الغربية.. لكن أين بدايته هل في مصر ام أنه يمتد حتى السودان ودول أخرى.. سؤال بلا إجابة..

***

(18)

كنا فـي موقف صعـب.. فقـد فقدنا دليـلا مهمًـا.. وصديقًـا عزيزًا ونقصنا واحـدًا.. لابد لنا مـن الهدوء والتـروي في مثل هـذا الموقف العصيـب حتـى يمكننا الخـروج مـن هـذا التيه بأقـل قـدر ممكن من الخسـائر.... جمعـت ما تبقى مـن حاجيـات حميد ملابسـه وهاتفه.. ووضعتها فـي حقيبتي وأعـدتُ وضعها على ظهري.. قررنا السـير مع اتجـاه النهر حتـى نصل إلى حـل أو سـبيل يتكشـف لنا.. سـرنا وكان النهـر الصغير على يسـارنا بينما علـى اليمين جدار ضخـم من الحجر الجيـري.. ويالللكارثـة علـى اليميـن بـدأت تظهـر لنـا فتحـات كثيرة مشـابهة لتلك الفتحـة التي خرجنـا منها.. هـل ندخل في واحـدة منها ونعاود الرجوع.. وإلى أين سـنعود لقـد أغلق علينا البـاب إلا الأبد.. ولابد من استكمال الطريق إلى نهاية لا نعلمها..

سـرنا حوالي نصـف سـاعة ونحـن نشـعر بالتعـب.. لقـد واصلنا السـير أكثر من ثلاث سـاعات متواصلة وبدأنا نشـعر بالجوع.. جلسنا قليـلا لنرتـاح.. ونسـترد انفاسـنا.. وأخرجنـا مـن الحقيبـة علبـة مـن

البسكويت.. كان الحزن ما زال غالبًا على حالتنا جميعًا لكن لا بد لنا من الأكل والشرب والراحة حتى يمكننا مواصلة تلك الرحلة التي تبدو بلا نهاية.. وبدأنا نأكل ونلتقط انفاسنا اللاهثة..

ارتحنا قليلا ثم وقفنا نواصل الطريق حتى وجدنا أمامنا ما يشبه الكوبري.. عدة جذوع من النخل أو ما تبقى منها مشدودة بجوار بعضها ومدعومة بأعواد حديدة وصخرية.. هل هذا كوبري معد للعبور؟ لا إنه معد للعبور بأحمال وأثقال لكنه بلا حواجز جانبية.. شعرنا بالفرح والسعادة..

من الجميل أن تجد نهاية للانهاية.. فالتعب الحقيقي أن تسير بلا هدف أو نهاية.. سرمدية اللاشيء هي قمة العذاب.. منحنا ظهور هذا المعبر طاقة إضافية فأسرعنا الخطى حتى وصلنا إليه.. صعدتُ إليه شعرت به على وشك الانهيار فتوقفتُ وأشرتُ لأحمس الذي كان خلفي بالتراجع.. هذا الكوبري قديم جدًا ومتهالك ولن يتحمل ثقلنا جميعًا فوقه.. سنعبر واحدًا واحدًا.. عبرتُ ثم عبر أحمسثم البنتين.. توقفتُوتناولت كشاف أحمس لأني وجدت كشافي قد أخذ يضعف.. وبدأت أتامل المكان.. إنه مشابه للمكان الذي كنا فيه كأنها نسخة بالكربون.. جدول من الماء أو نهر صغير بين جبلين.. وجهت الضوء ناحية الماء ثم أشرت لهم.. انظروا في الماء تماسيح أخرى..

وجدنا في مواجهة الكوبري فتحة في الجبل لكنها مختلفة إذ يتعين عليك الصعود على سلالم منحوتة في الصخور.. صعدنا

السلالم وسـرنا في ممر حتى وجدنا أنفسنا نشـرف على ساحة واسعة على شكل دائرة تقع أسفلنا

كانت السـاحة مملـوءة بالعجـلات الحربيـة والأسـلحة الفرعونية القديمة التـي كنا نراها في الرسـومات علـى الحوائـط بعضها مكتمل وبعضهـا أجـزاء.. بعضهـا يبـدو لـم يسـتعمل.. ما هـذا؟ وصلنـا إلى منتصف السـاحة وبدانا نتأمـل.. هناك امـر غريب المـكان مضاء دون الحاجـة إلـى الكشـافات.. هناك فـي الأعلـى فتحات تسـمح بدخول الضـوء.. ممر أمامنـا دخلنا فيـه وجدنا حجـرات فيها أفـران مثل تلك التـي كنا نشـاهدها في الأفـلام القديمـة (الأبيـض والأسـود) ومواقد صغير(كانون) عشـرات من الأفـران والكوانين.. وحجـرات متجاورة يبـدو أنهـا كانـت مخصصـة للمعيشـة.. وبعض الأسـلحة التي تشـبه المطرقة والحراب والسيوف..

في نهايـة الغرف ممـر جانبي سـرنا فيـه.. ثم اتجهنـا يمينًـا وجدنا عدة حجـرات متجـاورة ومتواجهـة.. اقتربنا منهـا وجدنا عليهـا أبوابًا حديدية قوية.. وعليهـا أقفال حديديـة صدئة.. وبعضهـا دون أقفال.. فتحنا البـاب ودخلت مـع أحمـس الغرفة رسـومات وكتابات بسـيطة علـى الحائـط باهتـة جـدًا لا ترقـي أبـدًا لمسـتوى أي فـن فرعونـي شـاهدناه على الحوائط هنا.. وسلاسـل حديدة معلقة فـي الجدران.. حوالي أربعة سلاسل في الغرفة..

دعوت هاميـس لتقرأ لنـا ما كتـب على الحائـط.. قالـت: إنه ليس بالهيروغليفيـة ولا بـأي لغـة مصريـة قديـة.. اقتربـت مـن السلاسـل

وفحصتها.. ثم قالت: يبدو أنها كانت توضع لتقييد المجرمين والمساجين في تلك الحجرات.. هل هذا سجن سري؟

يبدو ذلك.. أو لعله لم يكن سريا في زمانه.. وبالقرب من كل سلسلة وجدنا كومة من التراب غالبا جثث لأشخاص ماتوا في السجن مقيدين في الأغلال الحديدية.. ثم تحللوا.. وهذا التراب هو ما بقي منهم.. يا لبشاعة تلك الصورة وتلك الميتة..

قمت بحصر الحجرات وجدناها عشرين حجرة عشرة على كل جانب.. ثم في النهاية ممر طويل بطول حوالي ثلاثين مترًا.. سرنا فيه حتى وجدنا أنفسنا أمام حائط يسد الممر.. وعلى اليمين غرفة كبيرة..

هتفت أماني: انظر يا وليد هذه الكتابات التي تملأ الممر حتى هذه الغرفة.. أبطأتُ في السير أتامل الرسومات على الحائط وتبعتني هاميس لقراءة المكتوب على الجدران.. دخل أحمس الغرفة وخلفه أماني.. وصلت إلى باب الغرفة وخلفي هاميس. كان في الغرفة يد دائريةواضحة في الحائط مد أحمس يده وأدار اليد..

فجأة فتحت علينا نار الجحيم وانطلقت علينا السهام من فتحات في حوائط الممر.. انبطحت سريعًا على الأرض وأنا أجذب هاميس معي إلى الأرض.. صرخات في الهواء.. عشرات الأسهم التي أطلقت علينا وصوت صراخات غير مميزة.. ظللنا ثابتين في موقعنا

دقائق لا نـدري هل نقـوم فتفتح علينـا أبـواب الجحيم مـرة أخرى أم نواصل الرقاد..

حبوت نحو أحمس وجدتـه بخير.. وكذلك هاميـس أما أماني فلم تـرد.. اقتربـت مـن موقعهـا ووجهـت الكشـاف نحوهـا.. وجدتهـا مضرجة في الدمـاء وقد اخترق جسـدها حوالـي أربعة أسـهم صغيرة لكنها حادة. صرخت هاميس أمااااني..

اللعنة على من يقلل نومة الفرعون قاهر الهكسوس

هذه هي الكلمـات المكتوبـة على جـدار الممر والتي تسـببت في مصـرع أماني. لقد شـعرتُ بالرعب عندمـا قرأتُ هـذه الكلمات على الجدران بجوار مدخـل تلك الحجـرة الملعونة. هكـذا قالت هاميس وهي تغالب دموعها..

سـحبت جثـة أمانـي وأنـا جـاث علـى ركبتـي وخرجـت بهـا من الحجرة حتـى وقفت بها فـي نهايـة الممر.. كنـت اعرف أنهـا فارقت الحياة.. لكنني تمسـكت بالأمل غير الموجود وحاولت إنعاشـها فلم تسـتجب.. كانـت هاميس تنتحـب وأخذ أحمـس يضرب على رأسـه والدموع تسيل من عينيه..

هل نتركها ملقاة على الأرض؟ أم نحملهـا.. كيف نحمل جثة معنا وما فائـدة حملها.. وإلـى أين نحملهـا.. للمـرة الثانية نقـف عاجزين عن فعل شيء ونحن نفقد عضوًا ثانيًا في الفريق..

هل نحن على مشـارف الكشـف الأثري عن جثمـان أحمس قاهر الهكسـوس.. أم هي مدينة مـن تلك المدن السـرية التـي كانت تصنع فيها العجلات الحربية والأسـلحة لحرب الهكسـوس.. الأخطر الآن أننا بالفعل في موقفرهيب.. ومكان غير آمن..

كانـت هاميـس تبكي وتصـرخ وهي تقـول: ما هـذا التيـه الملعون الذي لا نسـتطيع الخروج منه.. نحن ندور في حلقـة مفرغة حتى نفنى جميعًا.. هذه مدينة ملعونة.. المكان الملعون والتيه..

***

(19)

كانت هاميس على حق فنحن الآن في يد القدر لا نملك حياله شيئًا ونحن نقف في مفترق الطريق.. لا نملك الرجوع ولا نأمن على أنفسنا البقاء.. والموت ينتظرنا في أي شبر نخطوه.. علينا الحذر الشديد ولا يمكننا البقاء..

معادلة كل ما فيها نهايته واحدة الموت.. سنواصل طريقنا حتى نفنى فنحن لا نملك خيارًا آخر..

كان ما حدث لأماني دليلا على أننا على وشك الكشف عن شيء خطير لكنه مؤمَّن بطريقة جهنمية ظلت باقية آلاف السنين.. ومازالت تعمل بكفاءة عالية وتستطيع تحقيق الحماية المطلوبة بدرجة كافية جدًا..

ما هذه المدينة الغريبة التي نحن بصددها؟

هل هذه مدينة فرعونية قديمة لم تكتشف بعد أم ماذا؟

على بعد خطوات من جثة أماني وجدنا حجرة واسعة في نهاية الممر..توقفنا على الباب المفتوح وكنا نرى ما بداخله عدد من

الصناديـق.. هل ندخـل أم نعـود.. وإلى أيـن العـودة.. دخلناها ببطء وجدنا على اليسـار مجموعة صناديق معلقة وبجوارهـا هيكل عظمي واضح.... همسـت لأحمس لسـنا أول من يصـل هنا.. فهـذا الهيكل يـدل علـى وصـول غيرنـا.. وتكفلـت بـه الحمايـة وقضـت عليـه.. اسـتندت هاميس علـى الجدار وهـي تبكـي وتصرخ.. خبطـت بكفها على الحائـط.. وشـاهدت كوة تفتـح في أعلـى الحائط وتخـرج منها قبضة حديدية وتتحرك سـحبت هاميس من يدها بسـرعة فسـقطة كتلة الحديد موضع رأسـها تمامًا.. نظـرت موضع السـقوط فوجدت كتلة أخرى على الأرض.. هكـذا فهمت كيف مات صاحـب الهيكل الذي لا نعرفه..

هناك أكـرة صغيـرة لا تظهر للعيـان بسـهولة على يميـن الداخل.. خشـيت من جذبها خوفًا من نتيجة مـا تخبئه لي هذه اليـد فتجاهلتها.. وفي المواجهة وجدنـا صناديق مغلقة عليها اسـم فرعوني.. أحمس.. حملـت صندوقًا منهـا وخرجت خـارج هـذه الحجـرة الملعونة حتى السـاحة المفتوحة.. لعلها الأكثر أمانًا حتى الآن في ظني.. وأمسكتُب إحدى الحراب وضربت الصندوق ضربة قوية بقـوة فانفتح.. وجدت في مواجهتيعدة سـبائك مـن ذات اللـون الأصفراللامـع.. عليها ختم فرعوني واضح. هل هذه سبائك الذهب التي نسمع عنها..

أنزلـتُ حقيبتي من على ظهـري ووضعت بعضا من هذه السـبائك فيها ثم وضعتُ الغطاء فوق الصنـدوق وتركتُه في السـاحة.. عدتُثانية

إلى الحجرة التي في نهاية الممر حيثُ يقف على بابها أحمس وهاميس بالقرب من جثة أماني..

وقفت مرة أخرى أمام الممر المغلق بحائط ضخم وبجواره عجلة واضحةأنها تفتح حائطًا.. أدرتُ العجلة فتحرك جزء صغير أسفل الحائط.. وجدنا أمامنا حجرة مماثلة لتلك الحجرة التي دخلنا منها في مقبرة قارة سالم.. نحن الآن في حجرة وهمية فيها يد حجرية أخرى في الحائط.. أدرتُ اليد.. فتح لنا الحائط..

واجهنا ضوء الشمس كاملا في وجوهنا.. أغمضنا عيوننا.. تلك العيون التي اعتادت على الضوء الخافت القريب من الظلام.. لأول مرة نرى الشمس في هذا اليوم العصيب.. الضوء والنهار في وجوهنا.. لقد خرجنا من مدينة التيه هذه أخيرًا.. ولا يمكن أنْ نعودَ إليها مرة أخرى.. لن نعودَ إلى تلك الممرات والحجرات الملعونة هذه.. شعرنا بارتياح شديد وفرحة كبيرة بخروجنا إلى الحياة مرة أخرى.. وعبرنا الباب..

وجدنا أنفسنا في كهف جبلي عادي تمامًا من تلك الكهوف الفرعونية المزينة بالرسومات لا يمكن تمييزه عن أي كهف جبلي آخر بهذه الرسوم..

عاودت النظر فورًا الى لوحة أحمس وأدرت العجلة الحربية فتحرك الباب وأغلق الحائط مرة أخرى..

***

(20)

وقفنا عند باب الكهف وجدنا أنفسنا على ارتفاع أكثر من مائة وخمسين مترًا عن الأرض.. نحن في منطقة مرتفعة وعرة.. فيها الكثير من الكهوف الجبلية المتشابهة.. وتحتنا بحيرة واسعة تشبه الدائرة.. وحولها كثير من الأشجار الكثيفة والنباتات.. ونخل وشجر موز..

جلسنا في فتحة الباب على حجر شَكَّلَ نتوءًا في المدخل بدا كالمقعد الصغير.. أخذنا نفكر.. ماذا نفعل وأي طريق نسلك.؟ كان الوقت قد اقترب من العصر..لقد سرنا طيلة النهار بلا راحة.. وفقدنا اثنين من الفريق.. كنا نظن أننا بلغنا النهاية فإذا بنا ضائعين في اللا مكان.. ندخل الكهوف ونخرج نبحث عن أي علامة لقد وجدنا حوالي عشر فتحات متشابهة هل ندخل ونفتش فيها.. ولكن عن أي شيء نبحث؟ نحن نريد العودة.. كنا نظن أننا ببلوغنا الضوء ونهاية تلك المتاهة أننا قد نجونا فإذا بنا قد سرنا في اللا نهاية..

لقد أوشك الماء الذي معنا على النفاد وما زال معنا بعض البسكويت.. سأنزل وحدي وأرى لو كان الماء عذبا فسأملأ

الزجاجات.. وأحاول إحضار بعض ثمار الفاكهة أو النباتات الموجودة حتى تعيننا على الحياة هنا حتى نرى حلا..

حاولت هاميس النزول لكن حالتها الصحية والنفسية لم تمكنها من ذلك فطلبت من أحمسأن يظل معها.. وعليهما توخي الحذر.. فنحن لا ندري ماذا يمكن أن يحدث أو مَنْ قد نقابله.. فنحن حتى الآن نحارب المجهول..

أخذتُ وقتًا طويلا في النزول.. فالطريق وعر وانا متعب.. وجدت نفسي فيما يشبه الواحة الصغيرة.. اقتربت من الماء بحذر فقد لمحت فيه عشرات التماسيح تسبح في المياه.. وحاولت الإسراع في ملء زجاجات المياه تجنبا لخطورتها وقبل أن تشعر بي.. أعرف جيدًا أن التمساح خطير في الماء لكنه بلا خطورة على الأرض تقريبًا.. وكفاها منا جسد حميد الهزيل. ولكن.. لا أدري هل هناك خطورة في تلك الأشجار الملتفة المحيطة ببقعة الماء هذه ام لا؟

كانتْ هناك ثمار ناضجة ذاتَ طعم لذيذ.. لكن الغالب أنْ معظم الثمار غير ناضجة.. حاولتُ أنْ أنتقي بعض الثمار الجيدة وبعض النباتات التي تصلح للأكل.. وكنتُ أحافظُ على تركيز عيني في مكان هاميس وأحمس فلا أفقدهما وسط كل هذه الفتحات..

أنهيتُ مهمتي وبدأتُ آخذ طريق العودة حيث هاميس وأحمس.. فجأة رأيتُ شيئًا غريبًا.. لقد لمحتُ سيارة جيب شيروكي تقف بجوار إحدى الأشجار.. هذا يعني أن هنا بعض الناس الذين قد

يساعدونا في الخروج من هذا المكان الذي لا نعرفه.. ولكن أين لقد نزلت البحيرة وطفت حولها ولم أر أحدًا.. عليَّ إذن أخذ الحذر.. فقد يكون الأمر خطيرًا..

لابد أن أصحاب هذه السيارة قريبين جدًا من هنا.. كمنت قريبًا من السيارة وبدأت أتطلع إلى كل مكان.. لمحت شبح رجلين يهبطان من الجبل كان أحدهما قوي البنية والثاني نحيل نوعًا ما يرتديان الملابس القبلية.. يبدو أنهما خرجا توًا من أحد الكهوف..

نزلا واقتربا من السيارة.. لمحت أحدهما.. أعرفه جيدًا.. إنه عودة موظف الاستقبال في الفندق.. كنت على حق حينما أخفيت نفسي فلا يمكن أن أطلب منه المساعدة ... إن وجوده هنا بهذه الصورة علامة على وجود شيء غير صحيح.. لعلهم كانوا يخفون شيئًا عن الناس..

انتظرت حتى تحركت السيارة وأسرعت إلى المكان الذي توقعت أنهما كانا فيه..

تقريبًا خرجا من هذا الكهف.. كانت الشمس قد بدأت تغيب دخلت على حذر شديد.. كان الكهف مظلما وخشيت من إضاءة الكشاف فيكون هناك أشخاص آخرون

كان الكهف مليئًا بالرسومات الفرعونية ولا شيء فيه.. أين يمكن أن يخفيا شيئًا في هذا الكهف لابد ان له مدخلا سريًا كغيره هل أجازف بالبحث عنه؟

قـررت التراجـع والعودة إلـى أحمـس وهاميس.. وضعـت علامة على بـاب الكهف حتـى لا أتوه عنه ثـم رجعت إلـى رفيقيَّ.. جلسـنا نتناول الطعام ونشرب الماء وأنا أروي لهما ما حدث..

تعجبا من تراجعـي عن محاولـة فتح البـاب السـري ونحن نعرف طريقـة الدخول التـي لن تختلـف عن غيرهـا هنـا غالبًا.. شـعرتُ في كلامهما اتهامًـا لي بالجبن فقلـت: لقد تأخرت عليكم كثيرًا فخشـيت أن ينتابكـم القلـق. ثـم عندما صعـدت الكهـف خشـيت أن يكون في الداخل أفراد آخـرون لا أتمكن وحـدي من التغلب عليهـم فيقبضون علـي ويقتلونـي أو يحتجزونـي وأنـا وحـدي.. هـذا ليـس جبنًـا لكنه حرص.. فما واجهناه ليس بالقليل. انتظروا..

عدت إلى داخل الكهف وفتحتُ الباب ودخلـتُ الحجرة الوهمية ثـم فتحـتُ البـاب الثاني ودخلـتُ إلـى الممر.. سـرتُ حتى السـاحة حملت حربتيـن.. وعدت مـن الطريق نفسـه.. ناولـت حربة لأحمس وحملـت الثانيـة.. نظرت إلـى هاميـس بتعجـب.. لِـمَ لُـمْ تحضر لي واحدة مثلكما؟

ضحكـتُ وضحـك أحمس..تحركنـا بهـدوء نحـو الكهـف الذي نريده.. وتركنـا أكثر من علامة مميـزة على الكهف الـذي كنا فيه حتى لا نفقد الطريق إليه.. سـرت في الأمام.. وتبعنـي أحمس ثم هاميس.. كنا متعبيـن ومع ذلك لـم نجد بدًا من ذلـك.. وصلنا الكهـف وعبرناه بحذر شديد فنحن لا نعرف ما ينتظرنا..

لم يكن العثـور على الباب السـري صعبًا.. فهو عبـارة عن حجر واضـح ظاهـر يـدور دورة كاملـة فيفتـح البـاب السـري.. حملـت الحربـة وأعددتهـا للضـرب وكذلـك فعـل أحمـس وأشـرت إلـى هاميس التـي اقتربت مـن العجلـة وأدارتهـا ففتح الجـدار.. وكانت مفاجأة كبيرة..

***

(21)

عندما فتحت هاميس الباب وجدنا سعيد صديقي ورجلا بجواره يتطلعان إلينا.. هجمتْ هاميس وتبعها أحمس على الرجل واحتضنوا بعضًا في فرح وسرور.. كان واضحًا أن الرجل هو الدكتور عادل والدهما..

وهجمت انا على سعيد.. وكان لقاء حار بيننا جميعًا.. عثر كل منا على ما كان يبحث عنه.. ولكن بكم من الخسائر والضحايا الغالية..

روينا له كيف وصلنا إليه في تلك الرحلة العصيبة وعندما وصلنا إلى مقتل أماني في أحد الشراك الخداعية.. صرخ سعيد حزنًا وتأثرًا وبكت هاميس مرة أخرى.. ثم وجدنا أخيرًا طريقنا نحو الخروج. ولكنها وصلت بنا إلى هذه البحيرة..

قال الدكتور عادل: هذه بحيرة التماسيح وهي معروفة هنا بكثرة التماسيح النيلية التي تعيش فيها.. وماؤها عذب ولا يعرف أحد

مصـدر الميـاه أو التماسـيح وهـي تبعـد حوالـي خمسـة وعشـرين كيلومتر غرب جبل الإنجليز... ليسـت مسـجلة ويعرفها بعض البدو والعرب الرحـل الذين يتـزودون بالمـاء العذب في سـفرهم..وربما بعض علماء الجيولوجيـا لكن مع الحذر الشـديد فالتماسـيح النيلية شـديدة الخطـورة فقـط ... نظرنا إلـى بعضنا فنحـن رأينـا خطورتها بعيوننا..

قلت له: لقد التهمت هذه التماسيح صديقنا في ثوان..

بد التأثـر على وجـه سـعيد والدكتور عـادل عندمـا روينا لـه قصة حميد الذي غاص في الماء فالتهمه التمساح..

وتعجب الدكتور عـادل عندما عرف بوجود فرع مـن نهر النيل يمر وسط الجبال على عمق كبير في الصحراء..

قـال الدكتـور عـادل: كنـت فـي ألمانيـا لإلقـاء بحـث عـن علـم المصريات وجهود أحمس وأسـرته في تحرير مصر من الهكسـوس.. وبعد الندوة تعرف علـى رجل ألماني وطلب رأيـي في بعض الأوراق والبرديـات.. لم تكـن تلـك البرديات نـادرة فمعظم المعلومـات التي فيها أعرفها تقريبًا فقد أسـس أحمس عدة مدن ومصانـع في الصحراء لتصنيع الأسـلحة وبنـاء العجـلات الحربيـة.. ولكـن مـا أضافته هذه البرديـات أن هنا بالقـرب من جبل عـال وبحيرة يعيش فيها التماسـيح يقع منجم لاسـتخراج الذهب.. كان الفراعنة يسـتخرجون منه الذهب الذي يستخدمونه في الإنفاق على الحرب ضد الهكسوس..

ولكننا بحثنا عن المدينة منذ عامين فلم نصل إليها.. لقد وصلنا البوابة السرية التي دخلتم منها ولكننا لم نكتشف وجود المدينة.. وعندما تدخل من الباب نأخذ الممر الثالث الذي يشير إليأن الملك الثالث أحمس هازم الهكسوس.. نسير فيه مسافة طويلة.. في ممرات وسراديب مختلفة.. وحجرات جانبية معظمها فارغ وفي بعضها أسلحة وعجلات حربية وبعض العتاد..ووجدنا صندوقًا واحدًا من الذهب.. ثم ينتهي بنا هذا الممر إلى أحد هذه الكهوف الجبلية المؤدية إلى هذه البحيرة مباشرة ولم نر نهرًا أو مدينة أو شيء..

قلت: هذا يعني أن هذا الممر من الشراك الخداعية لتضليل اللصوص..

ربما إن كان الأمر بالفعل كما قلتم لي. فهو ممر خداعي..

نظرتُ إلى الدكتور عادل: نعم لقد عثرنا على المخزن وفيه صناديق كاملة من الذهب..

هذا يعني أن منجم الذهب قريب جدًا من هنا وبخاصة من تلك الغرفة التي وجدتموه فيها..

ولكن علينا الحذر فهي غرفة الذهب والموت في آن..

واصل الدكتور عادل حديثه: كان الرجل الذي ادعى أنه عالم مصريات من رجال الأعمال المستثمرين في مصر في مجال

استخراج السيلكون واستثمار التربة السمراء هنا.. وقد يئست من العثور على الذهب فقررت كشف ما توصلت إليه في بحث علمي عن ذلك الممر وكل ما رأيته هنا.. حتى يكون حافزًا لي على مواصلة بحثي العلمي ومعينًا لمن يأتي بعدي إن فشلت في كشف موضع تلك المدينة الأثرية التي تعد دليلا على أن الفراعنة أنشأوا مدنًا ومصانع في الصحراء.. تعينهم في الحرب ضد الهكسوس.. وهذا ما كان يعنيني ولكن الرجل لم ييأس فحاول منعي بخطفي هنا وأحضرني حتى لا أنشر بحثي.. وأكون قريبًا من المكان الذي يعتقد أن الذهب فيه..

بالفعل كنتم قريبين جدًا لم يفصلكم عنه سوى الجدار .... ولكن تتوقع لماذا لم يقتلك؟

ومن سيساعده في الوصول إلى الذهب إن قتلني.. طبعا كان سيقتلني فور الوصول إلى الذهب.. ولكن هل اكتشفتم ممرًا خاصًا أوصلكم إلى الذهب من بعد السلم في الممر.؟

نعم لقد سرنا حتى بئر الماء.. هل تعرفها؟

نعم وصلنا عندها وعجزنا عن إيجاد أي مدخل أو طريق نعبر من خلاله فرجعنا.. فقلنا: إنه من الشراك الخداعية والممرات الوهمية المنتشرة بكثرة في هذه الممرات والسراديب..

بالعكس هو المدخل الرئيس للمنجم ومصنع الأسلحة..

ولكن أين المدخل؟

ضحكت وقلت: المدخل في البئر نفسه.. على بعد مترين على اليمين في قلب البئر..

خبط الدكتور عادل يده على رأسه وقال:.. معقول.. عامان كاملان والباب على بعد مترين مني؟

ليس فقط. بل على يمينك حائط يتحرك يسمح لك بالدخول والعبور إلى الداخل لكنه يفتح من الداخل فقط..

***

(22)

أفقنا من حـرارة واللقاء إلى السـؤال الذي ظل يتكـرر طوال اليوم. هل من سبيل للخلاص؟هل من طريق أو خطة للعودة من هنا ..

قـال الدكتـور سـعيد: الكهـوف هنـا مليئـة بالمداخـل الوهميـة الخداعيـة مثل هـذا المدخل الـذي يفتح مـن الخارج فقـط.. ويمكننا العـودة مـن الطريـق نفسـه الـذي دخلنـا منـه.. لكنـه لا يفتـح إلا من خارجه..

أي أننا سنسير كل هذه المسافة ثم نبحث عن مخرج؟

نعم

وما الذي يضمن لنا أن نجد مخرجًا بعد الوصول؟

لا شيء فقط محاولة..

هذه محاولة مرهقة وليست ذات جدوى

قال سعيد: هناك حل آخر.. أن نستولي على السيارة ونعود بها

كيف؟

ننتظر حتى يأتوا في الغـد بالطعام والماء كما اعتـادوا ثم نهاجمهم ونسيطر عليهم ونأخذ منهم المفاتيح والسيارة..

هل هما مسلحان؟

نعم مع كل واحد منهما مسدس كانا يهددانا به كلما حضرا

نعدل الخطة قبـل حضورهم ننزل ونختبئثم نسـتولي على السـيارة بعد صعودهما الجبل

كانت رائحة الكهف فظيعة.. فهمس سعيد بخجل:

نحن نعيش منذ عشرة أيام هنا ونقضي حاجتنا أيضا..

كان الدكتور عادل متشـوقًا لرؤيـة ما حكينا له.. فعدنـا إلى الكهف الذي وصلنا منـه إلى هذه السـاحة وفتحنـا حائط الكهف حتـى وقفنا فـي الغرفـة الوهميـة بيـن الممـر المؤدي إلـى مدينـة الذهـب وآلات الحرب.. ثم أغلقنا الباب خلفنا ودخلنا الممر..

مررنا فـي طريقنا بجثـة أماني.. توقفنـا عندها.. انحنى سـعيد على جثتها ولاحظـتُ أنه يبكي وهـو ينظر إلى تلك السـهام التـي اخترقت جسدها..

جذبت سـعيد من جانب جثـة أمانـي.. ودخلنا وقررنـا المبيت في السـاحة الكبرى فهي المكان الأكثر أمنًا من الشـراك الخداعية في هذا الوقت..

طلب منا الدكتور عـادل أن نصحبه في رحلة تفقدية لهذا الكشـف الأثـري والعلمـي الخطير.. خرجنـا من الممـر حتى بوابـة الكهف ثم وقفنا وأشـرت إلـى فـرع النهر الصغيـر الذي يمـر في قلـب الصحراء ولا يظهـر على السـطح.. اقتـرب الدكتـور عادل مـن المـاء وملأ يده بكفه وذاقها قائلا: هذا ماء عذب..

قلـت نعـم.. وهـذا يعنـي أنـه مـاء نهـر النيـل أومـن مـاء العيـون الصحراوية..

ماء العيـون لا يتدفق بهـذه القوة والكميـات الوفيرةوالسـرعة التي نراها هنا..

أشرت إلى الماء وقلت: تسبح فيه أعداد من التماسيح الخطيرة..

هـذا يؤكـد أن هـذا المـاء فـرع مـن النيـل مـن قبـل السـد العالي وإلا لمنع مرور التماسيح من فتحات السد

شـعرنا بتعب شـديد مـن أحـداث هـذا اليـوم المرهـق فعدنـا إلى السـاحة مرة أخـرى لاختيار مـكان ملائم يصلـح للنـوم.. كانت فكرة النـوم داخل الكهـف الجبلي هذا مرعبـة.. فهذا الكهف ليـس محكمًا تمامًا فهـو متصـل بفتحـات تؤدي إلـى فـرع النهر ومـع وجـود الماء القريب تظهر مشكلة الناموس.. بدأنا نشعر به وبلسعاته المؤلمة..

وهذه المدينـة الصغيرة مملـوءة بالكثير من الحجـرات والممرات المفتوحـة.. فهـي مـكان غيـر آمـن فـي الليـل خاصـة مـن الثعابيـن

والحيوانات التي تنشط بالليل.. ولقد شاهدنا التماسيح.. وبلا شك هناك الكثير من الحيوانات والطيور الجارحة في هذا المكان..

أضف إلى ذلك طبيعة الطقس في الجبل.. ذلك الطقس شديد البرودة الذي بدأنا نشعر به ونفاد معظم طاقة الكشافات التي معنا.. فهل يمكننا النوم في مكان مظلم تمام الإظلام..

أسرعت على ما تبقى من طاقة في الهاتف وانتقيت قطعا من الخشب الذي يستخدم لصناعة العجلات الحربية وحطمتها بواسطة الحربة الحديدية.. ثم أمسكت بقطعة خشبية صغيرة ووضعت تحتها قطعة من العشب شديد الجفاف الذي يشبه قش الأرز.. وأدخلت القطعة العلوية في ثقب الخشبة السفلي.. ثم أطبقت عليها كفيّ مفتوحين وظللت أحركهما بالاحتكاك مثلما نفعل في الشتاء لتدفئة أكفنا بحكها في بعضها بقوة.. ظللت أحك كفيَّ في بعضها بقوة وبينهما قطعة الخشب التي تحتك بفعل هذا الدوران السريع بقطعة الخشب الأخرى التي على الأرض حتى بدأ العشب في التدخين ثم انحنيت وأخذت أنفخ فيه حتى اشتعل العشب ومعه الخشب..

فوجئت بالدكتور عادل وأحمس وهاميس يصفقان لي وقال لي الدكتور عادل: أين تعلمت كل هذا؟

كنت أشاهد فيلمًا على اليوتيوب عن الحياة البدائية وشاهدتهم يشعلون النار بهذه الصورة دون كبريت..

ولكنك فعلتها كمحترف تمامًا..

ضحكت وقلت: الحاجة أم الاختراع يا دكتور..

كان الخشب متوفرًا بكثافة فكفل لنا ذلك إحساسًا بالسعادة والرضا.. يا سبحان الله لقد عاش هذا الخشب الذي أعدهأجدانا لنا آلاف السنوات حتى نستخدمه اليوم في الدفء..

شعرنا بالدفء يسري في أوصالنا.. ومنحنا ضوء النار إحساسًا بالأمان والراحة.. جلسنا نتسامر نحن الأربعةحتى رحنا في نوم عميق..

***

(23)

استيقظت مع أول ضوء للشمس.. فقد بت قلقًا طوال الليل من نومتي على الأرض في هذا المكان الغريب.. كانت النار ما تزال مشتعلة وإن كانت جذوتها قد هدأتْ..

وجدت الدكتور عادل ينام وفي حضنه هاميس التي تلتصق به.. بينما كان أحمس مضجعًا بجوارهما.. ابتسمت ثم تركتهم وخرجت من فتحة الكهف الجبلي المؤدي إلى النهر.. نفضت ملابس المتسخة من التراب الذي علق بها ثم اغتسلت وملأت زجاجات الماء.. وضعتها بجوار النائمين.. ثم تحركت في اتجاه الخروج من الممر السري المؤدي إلى بحيرة التماسيح.. شعرت بيد توضع على كتفي التفت فزعًا وجدت أحمس.. يا لهذا الفتي إنه يشعر بي ويتبعني..

أشرت إليه بالسكوت وفتحنا باب الممر ثم باب الكهف.. واجهنا الهواء الرطب الطازج.. والضوء الذي يستعيد عافيته. حقًا هذا هو الصبح الذي يتنفس.. توقفنا ننظر إلى الواحة من أعلى..

تتداخل أصـوات مئات الطيور تغريـد وزقزقة وشقشـقة.. مع أصوات مختلفة للحيوانات البرية.. محمية طبيعية مفتوحة للحياة البرية..

بدأنـا النزول بهـدوء إلـى الواحة مسـتمتعين بهـذا الجمـال البديع والطبيعة التـي تخلب العقـول.. أخذنا نشـاهد الحياة وهـي تعود إلى الحيوانـات النهاريـة التـي تسـتيقظ من سـباتها لاسـتقبال يـوم جديد ونحن نجمـع بعض الثمـار الطازجة ثم غسـلناهافي البحيـرة العذبة.. وأعددت إفطارًا جميلا لنا جميعًا..

بعد الإفطار وقفنا ثم همسـت لأحمس فتبعنـي .. فأحضرت بعض الأدوات التي تصلـح للحفر.. نظر إلينا الدكتور عـادل وفهم.. توقفت فـي منتصف السـاحة وأخذنـا نحفر وشـاركنا سـعيد في الحفـر ونقل التراب على جانب الحفرة..

انتهينا مـن الحفـر ثم اتجهنـا نحو جثـة أمانـي.. وحملها سـعيد.. مددت يـدي لأعاونه فرفـض والدموع تمـلأ عينيه حتـى وضعها على حافة القبر الذي حفرناه..

أسـرعنا نحـن الثلاثـة نحـو النهـر وتوضأناثـم صليناعليهـا صلاة الجنازة ووضعناها فـي القبر..ثم أهلنا عليها التـراب.. كانت لحظات حزينة..

اتجـه الدكتـور عـادل لتفقـد المـكان وهـو يقـول: هـذا مصنـع للعجـلات الحربية والأسـلحة التـي كانت تسـتخدم في عصـر الدولة الحديثـة.. اتجه للمـرات ومـر بالحجرات وهـو يتأمل الرسـوم ويقرأ

الكتابات المنقوشة على الحوائط ثم توقف عند مجموعة من الكتابات مكتوبة بلغة غير مفهومة في الحجرات والتي فشلت هاميس في قراءتها ثم قال: هذه حجراتكانت تستخدم كزنازين لسجن الأسرى من الهكسوس لأن هذه كتابات بلغة الهكسوس يشكون فيها قسوة الأسر وذله..

تفحص الدكتور عادل المكان حتى وصلنا إلى الممر المؤدي إلى حجرة الموت الخطيرة وشاهد كل شيء حولها.. وحاول الدخول إليها لكننا أمسكناه ومنعناه بقوة من دخولها.. فنحن نعرف جيدًا خطورتها.. فامتثل لرغبتنا بصعوبة.. وإن كنت على يقين بأنه سيجن ويدخل الحجرة

سعيت على تجاوز هذه اللحظات سريعًا فمازال الموقف صعبًا والمجهول ينتظرنا.. خرجنا إلى حيث باب الكهف وجلسنا على بابه صامتين.. قطع الدكتور عادل الصمت فقال: هذا المكان محمي بالجبال الطبيعية ويصعب الوصول إليه إلا مصادفة.. لذلك ظل محافظًا على جماله الطبيعي دون تدخل من البشر.. أعشق هذا الجبل والجلوس في الأعلى لمشاهدة الطبيعة الحية التي تسلب العقول..

ابتسمت قائلا: إذن هذا هو الجبل الساحر الذي كنت تقصده في مقدمة بحثك؟

- نعم كنت أقصد هذا المكان

ضحكت وقلت: لقد ظننا أنك كنت تقصد جبل الإنجليز..

جبل الإنجليز جبل رائع ومكان بديع لكنه لا يصل إلى جزء من جمال جبل بحيرة التماسيح هذه.. الكهوف والنباتات والحيوانات والمناظر الساحرة فيه كثيرة.. ويمكننا الحياة هنا إلى الأبد فالماء والطعام متوفران.. ويمكننا صيد بعض الطيور والحيوانات البرية.. وقد نعود يومًا للحياة هنا وسط هذا الجمال الطبيعي. لقد حل هذا الاكتشاف لغز بحيرة التماسيح هذه فقد كنت أتعجب من وجودها هنا في قلب الصحراء بمائها العذب وتماسيحها.. كنت أتساءل عن مصدر الماء والتماسيح.. لا شك أن هنا فتحة واسعة في العمق تربط بين فرع النهر والبحيرة تجدد الماء ويتسرب منها التماسيح..

ما زال الوقت مبكرًا حتى الرابعة موعد حضور الرجلين بالطعام والشراب.. نزلنا إلى البحيرة واغتسلنا مع الحذر الشديد من هجمات التماسيح..

كان المكان بديعًا.. يصلح للسياحة الطبيعية.. الهدوء والراحة والسكينة.. شاهدنا بعض الحيوانات الجبلية تقترب من المياه لتشرب.. ماعز جبلي والغزال المصري البديع.. وبعض الأرانب.. غابة طبيعية مفتوحة للمتعة..

ظللنا فترة طويلة خارج الكهفوسط تلك الواحة الطبيعية مع الحذر من الاقتراب من مياه البحيرة.. تابعنا أسراب الطيور.. والحيوانات الجبلية التي تعيش في الواحة أو قريب منها..واقفنا

نراقب غـزالا مصريًا رشـيقًا يقترب بهدوء مـن ماء البحيرة ليشـرب.. فجأة انتفـض الماء عن تمسـاح ضخـم مهاجمًا هـذا الغـزال البديع.. لم يكن الغـزال الرقيـق صيدًا سـهلا بـل كان حـذرًا فنجابأعجوبة من بين فكي التمسـاح.. وشـاهدنا حسـرة التمسـاح وهو يعود إلـى الماء بعـد أن أفلـت فريسـته منـه.. هللنـا جميعًـا لنجـاة الغـزال ولحسـرة التمسـاح على تفلت فريسـته من بين فكيه.. وكأنها كانـت مباراة وفاز الفريق الذي نشجعه..

نظرنـا جميعًـا إلى بعضنـا بعضًا ثـم ابتسـمنا.. قلت: هـل تفكرون فيما أفكر فيه؟

ضحك أحمس وقال: لقد فهمت ما تريد قوله.. دون أن تقوله..

إذن تعالى معي..

صعدت إلـى الكهف ومعي أحمسـوأحضرنا بعـض الأدوات.. ثم نزلنـا إلـى الواحـة مـرة أخرى..حملـت حربتـي فـي يـدي وبجواري سـعيد وأحمـس.. وفـي يـد كل واحـد منهمـا سـلاح.. كمناخلـف الأشـجار حتـى شـاهدناه يقتـرب مـن المـاء ويشـرب.. تركنـاه حتى ارتوى ثـم رفع رأسـه.. وجهت إليـه ضربـة محكمة بالحربـة فأصبت سـاقه الخلفية بدقـة بالغة.. فسـقط علـى الأرض.. أسـرع سـعيد إليه بالسيف وأجهز عليه..

كان الصيـد ثمينًا فهو جـدي من الماعز البلدي السـمين.. أمسـك الدكتور عـادل السـيف من يد سـعيد وأخذ يتعامـل مع الصيـد الثمين

كجزار ماهر.. قطع رأسه وجهزه ثم حملناه كاملا وصنعنا له شواية بدائية في الواحة باستخدام الحربة والأدوات الموجودة.. وتناولنا غداءً شهيًا من لحم الماعز الجبلي الطازج..

لأول مرة نشعر بدرجة من السعادة والفرحة منذ دخلنا هذه السراديب.. فقد منحنا الصيد متعة كبيرة في قدراتنا العالية التي شعرنا بها.. للأكل من الصيد الذي تجلبه يدك متعة بلا حدود.. لا تدانيها أية متعة في طعام تحضره أو تشتريه.. أن تشعر بأنك لا تحتاج إلى العالم الخارجي في أي شيء.. إن عقلك ويدك يكفلان لك السعادة والمتعة.. وكما قال الدكتور عادل: فعلا يمكنك الحياة هنا إلى الأبد دون الحاجة إلى العالم الخارجي..

مر هذا الوقت سريعًا واقتربت الساعة من الرابعة.. فبدأنا نستعد وحمل كل منا حربته وكَمَنَّا في الغابة خلف الأشجار العالية في انتظار قدوم السيارة المعتادة.. لمحناها تقترب وتوقفت.. نزل ثلاثة رجال من السيارة بدويان وثالث يبدو أجنبيًا رجلان يرتديان.. نظرت إلى الدكتور عادل فوجدته يمعن النظر ثم يقول: هذا هو مستر (زارو) صاحب مصنع السيلكون الذي ادعى أنه باحث ألماني..فكرت في الهجوم عليهم لكنني تراجعت خشية السلاح الناري الذي معهما..

انتظرنا حتى ابتعدوا وتوجهنا بهدوء نحو السيارة.. حاولنا فتحها فلمتتمكن.. السيارة حديثة ومؤمنة بشكل قوي.. ليس عندنا حل

بديـل.. بقوة ضربـت زجـاج السـيارة بالحربة..حطمت زجـاج الباب الجانبـي المجـاور للسـائق.. حاولـت الدخـول مـن الزجـاج فلـم أتمكن.. فقفز سـعيد منه إلى داخل السيارة.. دخل سـريعًا فهو أنحف منـي وأرشـق بمراحـل. أخذسـعيديعبث فـي التابلـوه ثـم قـال: هذه السيارة حديثة جدًا ولن تدار إلا بمفتاحها.. فهي تدار آليًا..

كنت أقف بجواره ببنما كان الثلاثة الباقون يراقبون أشـارت هاميس مـن بعيد يبـدو أنهـم اكتشـفوا هـروب الدكتـور عادل وسـعيد أسـرعنا نختبئ حتى نأخذهم على غرة من حيث لا يرونا.. ونسلبهم المفتاح..

إلى كهفنا بسرعة هكذا هتفت للجميع..

فأسـرعوا وتبعتهم متأخرًا حتى أتأكد من خروج سـعيد من السيارة وهروبـه معنا.. اقتربنـا من الكهف دخـل الدكتور عـادل ومعه هاميس وأحمس ثم دخلت.. سـمعت صـوت طلقات رصاص.. فجأة سـقط سـعيد على بوابة الكهف.. نظرت إليـه لمحت في عينه الألم الشـديد ولم أتمكن من فعل شـيء.. إذ كان يمكـن أن تكون الرصاصـة التالية في أنـا.. سـمعت تكـرار صـوت الرصاصوبالفعـل شـعرت باحتكاك عمود من النار في كتفي الأيسر..

أسـرعنا نحو الكهف وجدت أحمـس قد فتح بـاب الغرفة الوهمية ثم بـاب الممـر.. وجدتهـم ينتظروني.. عبـرت الباب خلفهـم وأغلق أحمس الباب تاركًا جثة سعيد على باب الكهف..

***

(24)

كان دمي يسيل على القميص فنظرت إلى هاميس بجزع وقالت:: هل أصبت؟

اقترب الدكتور عادل وفحص كتفي ثم هز رأسه نفيًا وقال: لا إنها سليمة لقد احتكت الرصاصة بكتفك فقط.. ولم تقترب من العظام أو اللحم..

الحمد لله

قال الدكتور عادل: أين سعيد؟

قُتِلَ.. قتله الرصاص.. وكاد يقتلني لولا عناية الله.. لقدقُتِل سعيد على باب الكهف.. ولابد أن أنتقم من هؤلاء القتلة..

هكذا أخبرت الجميع.. حزن شديد من الجميع خاصة الدكتور عادل الذي بدا عليه التأثر

من أمس وأنا أفكر في طريقة للتغلب عليهم والاستيلاء على المفاتيح.. وها هي الفرصة قد حانت.. نحن الآن في نهاية الممر..

مررنا بالحجرة الذهبية والممر أعرف أن المكان كله مليء بالشراك الخداعية ولكننا لا نعرف معظمها.. أما الآخرون فلا يعرفون عنها شيئًا.. ولعل ما لم نكتشفه أخطر مما عرفناه.. أسرعنا إلى الساحة.. ثم أشرت لهم بالاختباء في مدخل الكهف المؤدي إلى النهر وسألحق بهم..

كان في ذهني خطة معينة.. ولكن يلزمها السرعة حملت الصندوق المملوء بالذهب الذي تركته في الساحة وألقيت محتوياته من سبائك الذهب متناثرة على باب الممر عند فتحة الدخول بطريقة الحبل حتى غرفة الذهب.. وأدرت العجلة ففتحت باب الكهف الذي يؤدي إلى الغرفة الوهمية.. وأسرعت أختبئ مع الباقين..

ماذا فعلت؟ هكذا قال لي الدكتور عادل

شرحت له الخطة بسرعة

فغضب جدًا وقال: هذا خطأ كنا هنا في حماية ولا يمكن أن يدخلوا إلينا..أنت الآن كشفت لهم باب الممر والأسرار.. ومنحتهم كل شيء بسهولة..

قلت له بغموض؟

هذا إن ظلواعلى قيد الحياة.. كنا بعيدين جدًا عن الساحة..حتى نشعر بالأمان ومرت فترة من الوقت ونحن في. أماكننا. إن الوقت الذي مر يكفي لوصولهما هنا منذ فترة طويلة.. تسللت بهدوء حتى وقفت على باب الكهف المؤدي للساحة فلم أجدشيئًا..

أنا متأكد أنهم وصلوا.. وسيجدون أمرًا من اثنين إما انهم خرجوا بعد أن حملوا ذهب قدر ما يستطيعون حمله فسأسحب جثة سعيد وأدخل إلى داخل الممر وأغلق الباب فتتشابه عليهم الممرات ولن يستطيعوا الدخول حتى لو عرفوا الكهف.. وهذا ما لا أتمناه فأنا أحتاج إلى السيارة.. والأسهل بالمفاتيح بالطبع..

تحركت بحذر حتى وصلت إلى الغرفة الذهبية وكما توقعت تمامًا وجدهم صرعى اخترقت أجسادهم الأسهم الصغيرة.. وجدت عودة ملقى والسلاح في يده بينما كان السلاح ملقى بجوار الرجل الاخر.. وضعت يدي في جيوبهم أبحث فيها حتى عثرت على مفاتيح السيارة فأخرجتها في جيب الرجل الثاني. ووجدت جثة (زارو) مهشمة العنق بشكل فظيع..

تركتهم وعدت إلى الساحة وأشرت للباقين بالمفاتيح في يدي فجاءوا مسرعين ورويت لهم ما حدث بسرعة

قالت هاميس: إذن فقد قتلتهم..

قلت: لا لم أقتلهم وإنما اعتمدت على قراءة نفوس البشر.. وتوظيف جغرافيا المكان.. نحن هنا نعرف طبيعة المكان.. وطمع المجرمين.. المعرفة قوة والطمع غريزة في البشر خاصة المجرمين منهم قتلهم الطمع وإجرامهم..

بل قتلتهما بجرك إياهما إلى الشراك الخداعية.. وأنت تعرف ما فيها..

شعرت بالغضب الشديد من اتهامات هاميس لي فانطلق الكلام من فمي بعصبية واضحة:لقد قتلوا سعيد وخطفوا والدك.. ولو تمكنوا منا لقتلونا.. لقد نفذت فيهم قانونهم.. نحن في حالة حرب.. وقانونها معروف (قاتل بقوة وشجاعة.. لا تعط مكرمة ولا تنتظر مكرمة.. إن ظفرت بعدوك اقتله.. ولا تنتظر منه إن ظفر بك إلا أن يقتلك).. لو كان هناك من يدان فهم وليس أنا.. لقد حملوا السلاح علينا وطاردونا.. وقتلوا منا ولو ظفروا بنا لقتلونا نحن أيضًا.. لقد كان سلاحهم في أيديهم.. وسلاحي في عقلي.. هل تلوميني أم تهنئيني.. لولا عقلي لكنا مكانهم،، هل كان هذا سيرضيك وقتها؟!

ابتسم الدكتور عادل وهو يقول: أنت على حق فعلا.. هم يستحقون ما نالوا.. دعكم من هذا الجدال سأدخل الغرفة الذهبية كما تقولون..

حاولنا منعه فهي شديدة الخطورة لكنه أصر على دخولها.. غلبته غريزة الباحث على طبيعة الإنسان صحبناه حتى بابها.. فدخل ووقفنا على باب الغرفة فأنا أعرف جيدًا خطورتها.. وقد حضرت مصرع ثلاثة فيها والرابعة بجوارها.. دخل الدكتور عادل بحذر وهو يتأمل الحجرة وما فيها من نقوش بديعة.. تلك النقوش التي شغلنا عنها ما دار فيها من حوادث مرعبة.. تأمل الدكتور النقوش وهو يقول: تؤكد هذه النقوش ما توصلت إليه في بحثي ان أحمس دفن

في الواحات وغالبًا بالقرب من هذا المكان.. انظر يقول: اللعنة على من يقلق نومة الفرعون أحمس الأبدية.. واتجه نحو الكرة غير المخفية على اليمين وأدارها..

حدث كل شيء بسرعة كما هو معتاد.. وفتحت الأرض أسفل دكتور عادل وسمعته يصرخ والأرض تبتلعه ثم تغلق مرة أخرى.. ويعود كل شيء إلى اعتياده..

صرخت هاميس وصرخ أحمس ووقفت على الباب امنعهما من الدخول.. فأنا وهما نعرف النتيجة جيدًا.. كانت لحظة رهيبة شاهدناها كثيرًا منذ دخلنا تلك المدينة الملعونة..

***

(25)

أصيب أحمس بأزمة نفسية وعصبية حادة.. كان يصرخ ويهذي من كثرة الأهوال التي رأيناها.. سندته وعاونتني هاميس وخرجنا من الجبل ونزلنا ثم ركبنا السيارة..

عشرون دقيقة مضت حتى وجدنا أنفسنا على مقربة من جبل الإنجليز..

واصلنا الطريق حتى الطريق الرئيس في الباويطي.. أنزلت هاميس وشقيقيها ثم عدت حتى أخفيت السيارة خلف جبل صغير.. ووقفنا حتى أتت سيارة ربع نقل أشرنا إليها فتوقفت وحملنا صاحبها حتى باب الفندق

عدنا إلى القاهرة.. لم نجد من يصدق روايتنا أو يهتم بها.. كشف عظيم لكنه بلا قيمة إذ لا أحد يصدق.. فلا توجد وثائق أو برديات.. وحتى البحث الأصلي غير موجود..

كان أحمس يعاني من مرض عصبي ونفسي شديد فقد معه النطق والإحساس بالألم.. وباءت كل محاولات علاجه بالفشل حتى توفي ولحق بوالده قبل مرور شهرين على وفاة الأب..

أغلقت المكتب وفتحت شركة استثمارية كبرى للعقارات مع شريكتي هاميس التي توطدت علاقتي بها وبوالدتها خلال هذا العام علاقتي.. ثم صاهرت عائلة الدكتور عادل رحمه الله.. وتزوجت من هاميس.. اتفقت مع هاميس على قضاء شهر العسل في قصر الباويطي..

غيرتني تلك الرحلة تغييرًا كليًا فقد صرت شخصًا مختلفًا عن ذلك الذي عهدته من قبل.. بت لا أعرف نفسي.. أصبحت أكثر هدوءًا وروية وعمقًا..

أخذت أفكر هل نجحنا في مهمتنا ام فشلنا كما قالت هاميس لقد ذهبنا للبحث عن الدكتور وسعيد.. لقد كنا نشك في مقتلهما فحضرنا موتهما أمامنا حقيقة واقعة بلا شك.. وتسببنا في مصرع فتي مسكين.. لقد ذهبنا أربعة نبحث عن اثنين عدنا ثلاثة وفقدنا أربعة.. فقط ربحنا الذهب.. فهل كان مهمتنا ناجحة أم فاشلة. لا أملك الإجابة على هذا السؤال حتى بعد مرور سنوات عديدة على هذه الأحداث..

***

(26)

كانت سيارة جيب شيروكي ذات الدفع الرباعي والزجاج الأسود الذي يخفي كل شيء داخله عن أعين الناظرين تسير بسرعة في شوارع الباويطي حتى توقفت في شارع ضيق من شوارع الباويطي.. ونزل منها شاب يرتدي ملابس البدو وأخذ يشير إلى منزل فقير مبني بالطوب اللبن.. فتح باب

ونزل منها رجل ضخم الجثة يرتدي بدلة وتظهر عليه علامات العظمة والثراء

هل أنت متأكد أن هذا هو بيت أم حميد؟

نعم يا سيدي..

ممد يده إلى السيارة وأخرج منها كيسا أسود من البلاستيك وتقدم نحو الباب.. مرت دقاق ثم فتح الباب وأطلت منه رأس امرأة كبيرة في السن ترتدي جلبابا أسود سألها الرجل: أنت ام حميد؟

نعم

نظر الرجل إلى البديوي الذي هز رأسـه دلالـة التأكيد فألتفت إليها الرجل الضخم ومد يده بالكيس إليها قالا:

خذي هذا لك

ما هذا؟

قلت لك هذا لك

فتحت الكيس ونظـرت فيه ثم شـهقت وهي تـري رزم النقود التي تملأ الكيس والتفت لتسأل الرجل فوجدته ركب السيارة

من أنت؟

لم تسمع سوى صوت السيارة وهي تنطلق مغادرة المكان

.....

***

(27)

صعدنـا الجبـل ببـطءٍ وخـوفٍ،. حتـى وصلنا إلـى فتحـة الكهف المزينـة بالرسـوم واللوحـات الفرعونيـة المزركشـة.. عرفناهـا رغـم مرور عـام كامل علـى تركنا إياهـا.. أدرنـا العجلـة الحربيـة.. وفتحنا الباب السـري.. دلفنا إلى الغرفة الوهمية وأغلقنا الباب خلفنا.. فتحنا الباب المؤدي إلى الممر السـري وعبرنا ثم أغلقناه خلفنا.. نحن الآن في قلب دائرة الموت التي نـادرًا ما يخرج منها مَنْ دَخَلَها حيًا.. سـرنا في الممر ... حتى وصلنا بجوار الحجرة المنشودة حجرة الذهب..

توقفت عندما لمحت شـيئًا أعرفـه تمامًا.... كنت أخشـى من تلك اللحظة التي تجمعني به.. فأمامي يرقد هيـكل عظمي بكامله.. أعرف صاحبهجيـدًا.. ولي معه ذكريـات طويلة.. اقتربتُ منه ببطء وأنفاسـي تتلاحـق .. شـعرتُ بزوجتـي تمسـك فـيَّ مـن الخلـف وتنظـرُ حيث أنظرُ.. ثم همستْ في أذني: هو؟

هززتُ راسـي قائلا بصوت خفيض: نعم .. ثـم جثيتُ على ركبتي وتفرسـتُ فيه.. وجدتُه كما تركناه منذ عام كامـل.. فقط اختفى الوجه

النضر والملامح الجادة والجسد النحيل.. وبقي الهيكل العظمي.. كنت أعرف صاحبه فهو صديق العمر وسبب كل ما حدث لنا في هذا العام من خير وشر.. كان الهيكل بكامل الملابس التي كانت عليه كما تركناه.. مددت يدي ببطء شديد داخل الجيوب وأخرجت كل ما كان فيها.. حافظة الأوراق وميدالية المفاتيح وكل شيء.. فتحتُ الحافظة وجدْتُ البطاقة الشخصية وبعض الأوراق والنقود..

تركتُ الهيكل العظمي مكانه.. وعدتُ إلى الساحة حيثُ العجلات الحربية والأسلحة ووقفتُ في المنتصف بجوار قبر آخر أعرفه جيدًا.. فقد شاركتُ في حفره منذُ عام.. وبجواره تمامًا حفرتُ حفرةً عميقة بالأدوات الموجودة في الساحة.. توقفتُ قليلا ألتقطُ أنفاسي اللاهثة.. ثم عُدُّتُ سريعًا إلى الممر وحملت الهيكل العظمي بين ذراعيَّ وسرتُ به حتى وضعتُه على حافة الحفرة.. تركتُه لحظات ثم صليتُ عليه صلاة الجنازة.. وسحبتُه برفق حتى أسكنتُه القبر.. وألقيتُ بجواره كل أشيائه.. حافظة الأوراق بكل ما فيها والمفاتيح وحتى النقود.. ثم أهلْتُ عليه التراب.. لقد جمعتُهما كما كانا يتمنيان..

عملية تأخرتْ عامًا كاملا.. لم يكن الأمر في ذهني ولم أعد له مستقبلا.. لكن عندما شاهدت الهيكل العظمي.. عاودني الحنين والشوق وتذكرتُ ما كان بيني وبينه وجدتُ لزامًا على أن أواريه التراب.. وأحقق لهما ما منع القدر تحقيقه في الدنيا بجمعهما..

دخلتُ الغرفة الذهبية بحذر شديد وإن شئنا الدقة فهي غرفة الموت.. فأنا أَعْرَفُ الناس بحقيقتها.. وجدتُ على أرضيتها ثلاثة هياكل عظمية بكامل ملابسها.. أعرف أحدهما بل كنت السبب في مقتلهم جميعًا هنا.. سحبت صندوقًا من الصناديق الذهبية وبدأت التراجع حاملا إياه بحذر شديد .. فأقل خطأ معناه الموت المحقق.. وقد شاهدت ذلك بعينيَّ أكثر من مرة ..سرت به على أطراف أصابعي موليًا ظهري للباب حتى خرجت من هذه الغرفة الملعونة.. تنفست الصعداء لنجاتي من ذلك الموت المحقق..

وجدت زوجتي واقفة تبكي وهي تقرا الفاتحة على روح أغلى إنسان فقدته هنا..

***

نزلتُ من الجبل ومعي هاميس التي كانت في بداية حملها ونحن نحمل حقيبة صغيرة.. فتحت باب سيارتنا الجيب الشيروكي الجديدة ووضعت الحقيبة على المقعد الخلفي للسيارة. وركبنا خارجين من منطقة الجبال وبحيرة التماسيح في طريقنا نحو جبل الإنجليز ثم فندق القصر..

قالت هاميس: لماذا هذا التعب في كل مرة.. ولا ننقل كمية كبيرة من الصندوق مرة واحدة..

الكمية التي ننقلها ثروة كبيرة لنا تكفينا وزيادة فيها جميعًا ولهذا الأمر عدة فوائد..

لو فقدنـا الذهب لأي سـبب فعندنا غيـره ولا نثير حولنا الشـبهات والأطماع بصورة فجة..

ثم إننا نأتـي هنا للمتعة والسـعادة وتحقيـق فكرة الوالد فـي الحياة الجميلة وسط الطبيعة

وصلنا الفنـدق.. كان في انتظاري حسـن مسـاعدي الذي عـاد توًّا من بيـت أم حميد وناولنـي المفتاح قائـلا: تمام يا وليد بيـه لقد نفذت ما أمرتني به سعادتك

***

المؤلف في سطور

عصـــام محمـــود

* أســتاذ جامعي مصري.. كاتب وناقد أدبي لـه العديد من المؤلفات العلمية والإبداعية،..
* جائـزة التميز في مهرجان أوسـكار إيجبت(2016م) عـن فيلم بداية العالم.. فيلم مفتاح الحياة.. وفيلم بنوك الحياة
* جائزة (دار مها) السعودية في القصة القصيرة بعنوان «صدمة»
* **طبعت له في مجال الرواية:**
  - نيران ثلجية دار الوفاء الطبعة الأولى 2019
  - عطش لا يرتوي دار النابغة 2020
* **تحت الطبع**
  - الحنورة
* **للتواصل مع الكاتب:**

essamshkh@yahoo.com
الفيس بوك: د. عصام محمود
والصفحة الرسمية: الدكتور عصام محمود..

السَّعيد
للنشر والتوزيع